

الجزء الرابع

أسلوب حياة

الرسالة السادسة عشرة

صينية بقالوة من غازي عنتاب

إلى السيدة المبجلة جول أكا

عزيزتي السيدة ماري،

في رسائلك تصفين زياراتك لبعض النساء في حريم الدار، ولا تكتفين بتقديم التفاصيل الغنيّة عن الحياة اليوميّة وفهم شخصيّة النساء فحسب، بل تلقين لنا الضوء على ما اشتهر به الأتراك من حسن الضيافة في العالم.

اطمئني يا سيدة ماري؛ فلا شيء تغير منذ أن استقبلوك بالترحاب في منازلهم، صحيح أن تركيا لم تعد إمبراطوريّة يحكمها السلاطين، وقد بسقت على أرضها ناطحات السحاب هنا وهناك وسط السحب المترائية من نافذة قصرك بمنطقة بيراء، لكن حسن الضيافة التركيّة لم يتغير أو يتبدّل.

يحظى الكرم التركيّ بشهرة عالميّة، ويستحق هذه الشهرة عن جدارة؛ ظللتُ مدة طويلة أحاول أن أفهم سبب تحلّي هذا البلد بالكرم وحسن الضيافة أكثر من أيّ بلد آخر في العالم، وتوصلت إلى عدة أسباب:

- قد يكون أولها راجعاً إلى الأصول البدويّة للأتراك؛ إذ منحتهم شعوراً عميقاً بالتعاطف مع المسافرين؛ فقد أنشأ السلاطين السلاجقة فنادق وأنزلاً للمسافرين توفر المأوى والمطعم المجانيّ ثلاثة أيام على نفقة الدولة للتجار المسافرين؛ وسار العثمانيون على نهج السلاجقة؛ فأقاموا أعداداً كبيرة من المطاعم توزع الطعام على المحتاجين والمسافرين؛ فلن تجد مسافراً لا يلقى الرعاية أو الحماية من الخطر.

- والسبب الثاني لكرم الأتراك نابع من ثقافتهم الإسلاميّة؛ فحسن الضيافة سمة شائعة بين المسلمين في أنحاء العالم كافّة؛ وبوجه عام ينبغي على كل مسلم أن يكون في عون الآخرين دليلاً على طاعته لله، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم الأساسيّة في الحياة، ويعبّر الأتراك عن طاعتهم لله في صورة حسن الضيافة والكرم الجاري منهم مجرى الدم من العروق؛ فيشكل هذا المفهوم الواضح أساساً لأسلوب الحياة الاجتماعيّة التركيّة المشتركة؛ فيعكس احتياجاتهم الدائم لإرشادهم للآخر وقيادته وحمايته؛ يقول النبي -صل الله عليه وسلم-: "كلوا جميعاً ولا تفرّقوا؛ فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة، كلوا جميعاً ولا تفرّقوا؛ فإن البركة في الجماعة"^(١)؛ ولعل أوضح عبارة تبين فلسفة الأتراك تجاه الضيف المفاجئ وصفه بأنه زائر من عند الله؛ لهذا يتعامل الأتراك مع المسافرين بسخاء وكرم لا ينتظرون مقابلًا، بل إن العائلات تقيم نفسها بمدى كرمها تجاه ضيوفها؛ وقد تحدث الرحالة الشهير ابن بطوطة عام ١٣٣٠م عن ترحاب طائفة سلجوقية دينيّة به هناك قائلاً: "لا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج".

ربما يوضح هذا السبب الأخير رؤية الأتراك الخاصة للقاعدة الإسلامية الأساسية: فَمَنْ يَعْمَلْ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة: ٧/٨-٧/٩٩) ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة الأعلى: ١٧/٨٧)، عموماً أيّاً كان السبب، فإن كرم الأتراك يتسم بالدفء والبشاشة والهدايا والمشاعر الطيبة الرقيقة وبالأصالة والسرية والصدق؛ حينما قرأت رسائلك يا سيدة ماري، أدركت أنك استشعرت الرقة نفسها، ولعلها السبب وراء السماحة في تعليقاتك؛ فلم تشعري بالغرابة هناك، بل شعرت بالراحة، وتقبلت الاختلافات الثقافية وسمحت لها أن تغمرك كالماء الفياض؛ عندما أكون في تركيا أعامل بلطف ولو مرة يومياً، ما بين إيماءة خفية إلى عمل عظيم يذهلك ما فيه من مشاعر.

إن كلمة الأناضول باليونانية تعني «مشرق الشمس»، ويبدو أن كل تركي يستمد جزءاً من ضياء هذه الشمس، ثم يشع منه نور للعالم مرة أخرى؛ يلقي كل زوار تركيا الحفاوة نفسها، إلا أنني كنت محظوظة جداً -مثلك يا سيدة ماري- لأحظى بكرم أكثر من جُل السائحين.

لا يتحلى الأتراك بحسن الضيافة والكرم مع الأغراب والأجانب فقط، بل أصبحت هذه السمّة أسلوباً سائداً في الحياة؛ فثناء الحديث، كثيراً ما يردّدون كلمة (بويورون)، وهي كلمة جامعة رائعة في سهولتها، تحمل عدة معانٍ، مثل: «من فضلك! تفضل! على راحتك! من هنا لطفاً! على الرحب والسعة!» إنها لفظة مناسبة لكل موقف، ناهيك عن صدورها بأسلوب أخاذ؛ فدايماً ما تصاحبها ابتسامة ويد ممتدة؛ فهي في نفسها هدية!

حدثتك بالفعل عن حسن ضيافة الأسرة التي تبشّني وعن سخائها، غير أن أهون الأمور يومياً في الطرقات تتم عن الكرم التركي، كأن تتلقي قدحاً من القهوة على صينية ذهبية، أو أن يفتح الباب أمامك تلقائياً -أكثر

الأمر شيوعاً في تركيا تقديم أكواب الشاي-، علاوة على ذلك لا يسمح الأتراك لي أن أدفع ثمن أي شيء أو أن أتكفل بنفقاتي، بل يعدونها إساءة بالغة أن أحاول دفع النقود، وإياك أن تعرّضي دفع نفقاتك وبصحبك رجل؛ فهذه إهانة بالغة لشرف رجلٍ تركيٍّ مضيّفٍ سخّي.

غالباً ما ينصبّ حسن الضيافة التركي على تقديم الطعام والشاي، ولا بد أن تقبلي كلّ ما يُعرض عليك، فالأتراك لن يتوقفوا عن المحاولة حتى تستسلمي؛ فبينما نسأل شخصاً في بلادنا إن كان يريد شيئاً مكتفين بإجابة الضيف نعم أو لا من أول مرة، فالحال مختلف هنا؛ إذ السؤال يُطرح على الأقلّ ثلاث مرات؛ لأن الأتراك مقتنعون أننا نخجل أو نستحي من الموافقة من أول مرة.

في رسائلك يا سيدة ماري، وصفت «الخمسين طبقاً» المقدمة لك، ويمكنني أن أؤكد كلامك؛ فدائماً ما تُعدّ مائدة عامرة للضيوف؛ تضم ثمار الإحسان الصابحة والكباب يدويّ الصنع وفطائر اللحم والكبة؛ ذات مرة وصلتني على العشاء صينية قطرها قدمان ملأى ببقلاوة الفستق الشهيرة، أرسلت خِصيصي لخدمة التوصيل مسافة نحو مئة وخمسين ميلاً في حافلة من غازي عنتاب إلى قيصري.

ليس ثمة وسيلة في التعبير عن الكرم ألطف من تقديم أكواب صغيرة مزينة بأزهار توليب بها شاي ياقوتيّ ساخن؛ فمع كل رشفة يمكنك أن تستشعر دفء هذا الشعب وعذوبته؛ إنها لفئة صغيرة تركت أثراً كبيراً؛ إذ تضيفي على كل شيء لمسة إنسانية، بدءاً من تسجيل الوصول إلى الفندق حتى الاستمتاع بخضرة متنزه عام.

أينما تذهب تفزّ بكوب الشاي: في المتاجر عقب الشراء، في الزيارات السريعة إلى منزل صديق -ويفرض العرف تناول ثلاثة أكواب-، في الصيدليّة عندما تذهب لشراء أقراص الأسبرين لتخفيف الصداع،

عند المصوّر، وبالطبع عدة مرات أثناء المساومات لشراء سجّادة! فأصبح تناول الشاي من طقوس إبرام الأعمال، وعندما تصطك الملعقة بجانب الكوب الزجاجي تصدر جرّساً عذباً، تستجّد معها عرى صداقة وثيقة.

تتجلى أبرز المظاهر لحسن الضيافة في معاملة الضيف في منزل تركي؛ فهي تجربة أشبه بسباق يركض فيه كلّ أفراد الأسرة والجيران المضيفون؛ إذ يسارعون لمنحه أفضل فراش في المنزل، ويعملون على تغيير نظامهم اليوميّ كلّ ليتوافق معه، وكأنّهم لا همّ لهم في الحياة سوى الاهتمام به؛ يتوقون دائماً للتعرف إليه حتى يعرفوا طريقة ربط حذائه وتخليع طعامه، ولا بد أن يكون الضيف مستعدّاً لتقبل التدقيق الشديد في كلّ ما يفعله.

ذات مرة نزلت ضيفاً في إزمير على منزل لوالديّ صديقتي الأمريكية، ولا بدّ أن أقرّ أنّهما اعتنيا بكلّ شيء، وظلّت المضيضة تقطع المنزل جيئةً وذهاباً لضمان راحتي؛ فذات ليلة، أثناء تناول العشاء في الشرفة، اتكأت على السياج، وحينما حاولت الابتعاد عنه، أدركت أنني ملتصقة به بطريقة ما، حاولت إخفاء ورطتي قدر استطاعتي، وأخيراً انتهزت فرصة تغيير الأطباق على المائدة وتمكنت أن أنتزع نفسي بعيداً عن السياج، فوجدت أن ذاك الجانب من فستاني قد تلطّخ بطلاء أبيض، وفي وقت متأخّر من الليلة نفسها حاولت فتح النافذة في غرفة نومي قبل أن أخلد إلى الفراش لكن دون جدوى؛ إذ كانت عالقة بشدة، حاولت عدة مرّات قبل أن ألاحظ أن يديّ ملطختان بالطلاء نفسه، وما أدركت الأمر إلا حينئذ؛ فهذا الطلاء الطريّ دليل على استعداد الأسرة لزيارتي، بدءاً من لحظة اتصالي قبل يومين لأعلمهم بقدومي حتى صباح اليوم.

أثناء زيارتي لأسرة في قيصري، تم ترتيبُ حفلٍ للتعارف بعد تناول العشاء، ودُعيت ثلّة من الجيران للسّمر، واحتساء الشاي، وتناول الفاكهة، والجوز، والاستمتاع بنسيم الليل، حضر كل هؤلاء للترحيب بي، فشعرت بشعور السلطان الذي يستقبل السفراء -أمثال زوجك يا سيّدة ماري-؛ وعندما أوْشك الحفل أن ينتهي، أعلن أحد الضيوف -ويُدعى مُظفراً- رغبته في إلقاء كلمة؛ فسكتنا جميعاً؛ بدأ يتحدث ببطء شديد وبكلمات سهلة لأفهم كلامه: «سيّدة قدريّة! نشكر لك زيارتك، نحن سعداء بالتعرف إليك، ومنتظرُك مرة أخرى العام القادم، ونتمنى أن يحضر معك زوجك حينئذ، نتمنى أن تكون رحلتك موفقة وآمنة، بارك الله فيك»، ولما انتهى نهضنا جميعاً، وتبادلنا التّحايا، ثم غادروا؛ لن تجدي أيّ سفير مبعوث إلى بلاط السلطان أحمد أكثر كياسة أو لطفًا.

يعاملك الأتراك في كل مكان كما لو كنتِ ضيفتهم؛ ذات مرة كنت في مطعم في أفيون، ووصلت مجموعة عشرون شخصاً تقريباً ليقيموا احتفالاً عائلياً، وعندما رأوني دَعَوني؛ ويلقى المرء معاملة الضيوف الكريمة نفسها في المكاتب أو في أماكن العمل؛ فمكان العمل ليس إلا امتداداً للمنزل، وعندما تدخله تسري عليك قواعد الحياة الرائعة نفسها؛ أخبرتك سابقاً كيف تحولت زيارتي إلى أحد الأسواق إلى زيارة لمكتب العمدة بقرية إزينا بازار؛ حينما وصلت إلى ذلك المبنى الحكومي الخرسانيّ المطلّ على الميدان، صعد معي مساعد العمدة إلى المكتب في الطابق الثاني، فمررنا على لوحات ملونة بارزة للسلطين العثمانيّين والسلجوقيّين المشهورين جميعاً، ثمّ توقفنا لحظة أمام خزانة عرض زجاجيّة تضم نصباً تذكاريّاً يدعى «ركن الشهداء»، به صور باللونين الأسود والأبيض لجنود محلّيين استشهدوا في الاشتباكات الأخيرة مع إرهابيّ حزب العمال الكردستانيّ، وتمثال نصفيّ ذهبيّ كبير لأتاتورك، وزهريّة

كبيرة تحتوي على أزهار حمراء بلاستيكية، وهي لفنة بسيطة تثير المشاعر، ذكرتني بالنصب التذكاري لمحاربي فيتنام في واشنطن العاصمة.

لدى وصولي إلى مكتب العمدة لم أجده مثل مكاتب رجال الأعمال في الغرب؛ إذ كان يضم طاولة عظيمة أكبر من طاولة أي وزير فرنسي، عليها قلم حبر ونشافة، وهاتف، ولافتة ذهبية كبيرة كتب عليها اسم المحافظ ومنصبه، ومجموعة الصحف اليومية، وثلاثة أعلام تركية مثبتة على حامل صغير، ليس هذا فحسب، بل ضم المكتب أريكتين وستة مقاعد بمسندين، ومطافئ بلورية للفائف، وشاشة تلفاز ملون مسطحة هائلة، ورفوف للكتب، وحاسوب، ومائدة حولها ثمانية مقاعد، وصورة ثلاثية الأبعاد لآتاتورك، علاوة على صور مآطورة لمشاهد جبلية معلقة كلها على الحائط، وزهريات، وثلاثة أقفاص بها طيور الكناري الصفراء المغردة، وأؤكد لك أنني استقبلت بحفاوة وأبهة أكبر مما تلقيتهما أثناء زيارتك لحريم الدار يا سيدة ماري.

حاورني العمدة حوارًا مفعماً بالحيوية ثلاث ساعات، وراح يعرض عليّ أوراقاً على مكتبه أو على رفوف كتبه، وأغراضاً في أدراجة وملفاته، ونادى مساعده وأعطاه كومة من هذه الوثائق -وهي تقارير عن المحاصيل، وإحصاءات محلية، ومقالات عن السوق- وأمره أن ينسخها لي، ثم شغل العمدة المكثف بالحاكوم على مكتبه، وسرعان ما قُدم لي الشاي والصودا والماء والمياه الغازية دفعة واحدة بينما قُدمت للعمدة قهوة تركية، ثم شاهدنا عرض فيديو لاحتفالات الختان المحلية العامة التي أقيمت قبل أسابيع قليلة في الميدان المقابل للسوق، ثم طلب العمدة من مساعده أن يصنع لي نسخة من تسجيل الفيديو، فلاحظت على رفوف الكتب صحنًا خزفيًا حديثًا من إزنك صُنع خصيصاً لحمل صورة العمدة وخلفه

سوق، فتشجعت وسألته من أين يمكنني شراء مثل هذه التحفة؟ وبسرعة البرق استدعى المساعد ليلفّ الصحن لآخذه معي! وبينما لا أكاد أجد الوقت في عملي لاستقبال ضيف مفاجئ ولو عشر دقائق، اقتطع العمدة من وقته أكثر من ثلاث ساعات، وقدم لي المشروبات والوثائق والهدايا!

أعتقد أن السفر يمنح الأتراك فرصاً لا نهائية لإظهار حسن ضيافتهم بوسائل مبتكرة؛ ولأنني امرأة أجنبية، فدائماً ما تُبدل الجهود لإعادة ترتيب الركاب في الحافلة بحيث أحصل على المقعد المرغوب ذي رقم واحد خلف السائق مباشرة، وحينما أصل إلى أحد الفنادق أستقبل دائماً بالاحترام، ويحتشد الخدم لحمل أمتعتي؛ ذات مرة تحمّل رُبان مركب بنفسه مسؤولية إرشادي في جولة إلى جزيرة أكدامار في بحيرة فان، أما في أماسيا، فقد تبّهني أحد المارة أنني أنتظر الحافلة المتجهة إلى إزينا بازار في المكان الخطأ -كيف علم وجهتي!- وسار معي نصف ميل إلى مكان الانتظار الصحيح، وفي أنطاليا قدّم لي صاحب مطعم ذي إطلالة -للأسف لم يعد موجوداً الآن- المشلجات وشراب النعناع المسكّر اعتذاراً عن بعض المزعجين في المائدة المجاورة، وعادة تمرّ عارضات الترفيه في المطاعم على جميع الطاولات لإلقاء التحية، واعتدن أن يتوقفن عند طاولتي لتحيتي والسؤال عن اسمي والترحيب بي أنا الضيفة المميزة عندهم، أما في ركن الأرز التركي في القرى الصغيرة، فغالباً ما أحصل على طعام إضافي لم أطلبه؛ لسعادة العاملين الشديدة باستقبال ضيف أجنبي في ركنهم المتواضع، وحينما استأجرت سائقاً ليوصلني إلى أطلال قصر كوباد آباد القريب من بيشهير، كان يتوقّف كلّ خمس دقائق ليقطف لي ثمرة مختلفة من الشجيرات الغنيّة المحيطة بالبحيرة، مثل: التفاح، الكمثرى، الخوخ، البرقوق، الكرز، التوت، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، دعاني إلى متنزه بجوار الحديقة لأشاهد غروب الشمس على البحيرة وأحتسي الشاي مع أسرته.

وللأتراك -الفخورين جداً بللدهم ذي التاريخ العريق- فعّالٌ في كرم الضيافة تتضمن لفتات ظريفة يظهرونها أمام الأجانب، وكأنّها أسلوب للتعبير عن سعادتهم بالانتماء لهذا البلد، فهذا رجل من أدرنة كان قد نقل مصنعه خلف الخان الذي شيّده إميكششي أوغلو أحمد باشا عام ١٦٠٩م، اصطحبني وحدي لجولة في السوق؛ وآخر شيخ احدودب ظهره يتوكأ على عكازه في مقبرة السلاجقة بقرية جيفاس، سار معي ليطمئن على مشاهدتي مقبرة الشريفة حليلة «قارا قيونلو هانم أفندي» السيدة صاحبة الخرفان السوداء؛ وفي نكسار عند زيارتي المسجد الكبير اصطحبني إمام المسجد لأعلى القلعة، وظلّ معي طوال اليوم من بعد الظهيرة، وأخبرني أنه فعل ذلك؛ لأنني أول أجنبيّ يحضر لزيارة مسجده؛ فظنّ أنّ الله أرسلني إليه لحكمة، واعتنى بي جيداً! ويظهر حسن ضيافة الأتراك أيضاً في جولة خاصة اصطحبني فيها مدير مدرسة جوهر في قيصري ساعتين، وجعلني أوقع في سجل الزوار، ويظهر كذلك لدى الشيوخ الجالسين في ميدان قرية هورتو أمام النصب التذكاريّ الصغير للبطل الشعبي نصر الدين خوجا (جحا)؛ وجدتهم يفسحون الطريق لأتمكن من التقاط صورة ما زالت معروضة على مكتبي حتى اليوم بوصفها رمزاً للفتة طيبة قادتي لأكتشف واحداً من أجمل الجسور السلجوقية في تركيا؛ ويظهر كذلك فيما فعله الرجال في متجر البقالة المقابل للمسجد السلجوقيّ في بيرجي؛ إذ أخرجوا أكبر مفتاح حديديّ رأيته في حياتي؛ ليفتحوا باب المسجد لأشاهد مصراعيه الأصليين المنحوتين من الخشب ومثذنته.

ذات مرة ركبت سيارة أجرة بعد الظهيرة في سيواس؛ لأزور قبر الشيخ حسن، ثم استأذنتي السائق بحياء في أن يصطحبني إلى مكان ما قائلاً: «أعرف مكاناً أشعر أنه سيعجبك كثيراً»؛ عادة ينبغي أن يحذر المرء من مثل هذه الاقتراحات، لكن لم الحذر! أنا في تركيا لم أخش

شيئاً؛ فاصطحبني لمشاهدة جسر «أير» المميز بتقوسه كأنه حرف اللام، وما زال صامداً فوق النهر الأحمر رغم الهزات الأرضية العنيفة عامي ١٩٣٩م و١٩٤٢م التي دمرت كل شيء تقريباً في المنطقة.

كل ما أخشاه يا سيدة ماري أن يتلاشى حسن ضيافة الأتراك؛ فأخاف أن تستنفد أفواج الأجانب المتدفقة على تركيا الصبر السرمدي للأتراك وتمحو شعورهم بأن هؤلاء الوافدين - غير المحترمين عادة - زوار من عند الله، لكنني عندما أفكر أن هذه السمة - حسن معاملة الأتراك لضيوفهم - منذ أيام ابن بطوطة عام ١٣٣٠م حتى ذهابك عام ١٧١٨م، أطمئن أن مخاوفي لا أساس لها من الصحة، كل ما ينبغي علي فعله هو تذكر الغرف حديثة الطلاء وصواني البقلاوة من غازي عنتاب؛ ليطمئن قلبي، نعم، ثم نعم، ثم نعم، أريد كوباً آخر من الشاي!

صديقتكم

قدريّة براننج



صينية بقلاوة أرسلت من غازي عنتاب تكريماً لي



اجتماع الجيران لشرب الشاي في قيصري



جسر أير في سيواس



قبر الشريفة حليلة في جناس

الرسالة السابعة عشرة

وسائد وكعك

عزيرتي السيدة ماري،

أفرد في كل دفتر ليوميات سفري قسماً خاصاً بعنوان: ”أمور لامست شغاف قلبي“، وفيه أسجل كل الأمور الاستثنائية المفاجئة خلال الرحلة، وهي لا تقتصر على العجائب المعمارية والفنية والطبيعية، بل تضم أيضاً اللمسات الإنسانية واللقاءات المؤثرة التي تترك بصمتها في نفسي كما تفعل المواقع التاريخية والجغرافية؛ فالأتراك لا يكتفون بكونهم أكرم شعب في العالم، بل يتجاوزون هذه السمة الجديرة بالتقدير، ويبادرون بأعمال مذهلة لا تُصدق تنم عن طيب العنصر، أعمال تتفق مع أدبهم الجمّ وسمو أخلاقهم الفطري، قد تكون هيبة جداً، كتقديم كوب شاي، أو المصافحة، أو كلمة ”تفضل“ بابتسامة دافئة، أو رشّة عطر، وقد تكون قيمة جداً ومفعمة بالطيبة والعفوية كإهدائك قصيدة أو صينية بقلادة من غازي عنتاب، لكن المذهل أنك تُفاجأ دائماً لما في ذلك من لطف ويسر وعفوية دون تحفّظ حتى إنها تبدو أسلوب حياة، وأنا أعتقد أنها من أهم الدلائل المشيرة إلى إنسانية الشعب التركي الأصيلة؛ يتصرفون كأنهم ملائكة تسير على الأرض؛ فهم يرعونك ويساعدونك دائماً كي يكون يومك أجمل وأقيم.

كيف يمكنني أن أشرح لك هذه اللفتات يا سيدة ماري؟ كان أغلبها أثناء مغامراتي في الطرقات؛ ولأنك نادرًا ما بقيت وحدك لم تقابلي منفردة أيّ تركي، وفاتك -في رأيي- أن تستكشفي بعض أغنى الكنوز في هذا البلد.

ربّما لا يبدو متميزًا ما سأفصّله عليك من أحداث، لكن في البيئة المدنيّة الصعبة حيث عشتُ لا يتاح لك الوقت لتتّكشّف الأمور كما يحدث في تركيا؛ إذ تُبنى جدران الخصوصية الحذرة سامقة حول الناس جميعًا، أمّا الأشياء المميّزة خلال سنوات سفري الطويلة فهي إمّا تقدير بالغ أو إطراء رقيق وإمّا لفظة متواضعة أو هدية قيّمة.

أخبرتكَ من قبل أن الأتراك يتمتعون بأدب جمٍّ، ويكثرون من كلمة ”تفضل“، ومن تقديم الشاي، واستقبال كلّ من يقابلونه في حياتهم اليوميّة بكلمة رقيقة، حتى إنّ نهاية رسائلهم توجز اهتمامهم الشديد بالكياسة؛ فلا يكتبون عبارة ”صديقك المخلص“ المملّة، بل يكتبون ”مع احترامي وتقديري“، وقبل أن يطلبوا شيئًا يقولون دائمًا ”بعد إذنك“، وتعلّمت منهم أنّ أسرع طريقة للتخلص من أيّ مشكلة تؤثر على أمانيّ أو سلامتي أن أهْمِس أو أصرُخ بكلمة ”عيب!“ المزلزلة لصورة التركيّ سبب المشكلة؛ فيهرب سريعًا، ورغم ذلك لم يحدث خلال ثلاثين عامًا من السفر أن تحدّث إليّ شخص بغلظة أو بسوء أدب سوى مرتين، كانتا ردّ فعل تجاه المواقف المؤسفة لقادتي السياسيّين، وليس غضبًا من شخصي.

قل لي عدة مرات: إن من أسباب تعامل الأتراك معي بطيبة ولطف أنني أسعى جاهدة لاحترامهم، من خلال ارتداء الملابس الملائمة والتصرف بأسلوب يتماشى مع عاداتهم وآدابهم، والأهمّ من كل ذلك أنني أتحدّث لغتهم؛ قد يكون ذلك صحيحًا، لكنّ الأتراك يحترمون كلّ الزوّار الأجانب دون تكلف، بل بأريحيّة وتلقائيّة كما هو الحال فيما بينهم.

يولي الأترك عناية خاصّة بضعفاء القرية سواءً أكانوا مُعاقين أم فقراء، ويعاملونهم باحترام؛ خلال زيارتي الأولى إلى تركيا كنت أسير في حيّ هادئ، فاقترب مني رجل كفيف يحمل في يده بطاقة بريدية شاحبة مطوية الطرف؛ لم أفهم الأمر في البداية، ثم أدركت أنه يعرض عليّ أن أشاهد صورة الهرة الصغيرة المطبوعة على البطاقة مقابل عملة نقدية؛ لم يكن متسوّلاً بالمعنى المفهوم، بل كان يعرض عليّ خدمة؛ حينها جاء رجل كان واقفاً على مقربة منّا وقال: ”يا عمّ -نداء احترام لكبار السن- دعها وشأنها، فإنها أجنبية ولن تفهمك“، ثم اقترب الرجل وأمسك السائل من ذراعه ليبعده عني، وفي الوقت نفسه دسّ سراً في يده عملة نقدية؛ فلم تُجرح كرامة السائل، ولم يتسبب أحد في إزعاجي، وعلمني الرجل درساً مهماً عن طريقة السؤال والعطاء في تركيا!

يتجلى الشعور بالشفقة نفسه تجاه السائلين في موقف آخر حدث في قونيا، حيث خرجت من صيدلية بعد شراء الدواء، وجلست في حديقة شاي مجاورة لأستريح وأتناول الدواء؛ فأدرك رئيس الخدم التركي الحاذق -وقد لاحظ خروجي من الصيدلية وإمساكي ببعض الأقراص- أنني لست على ما يرام، وقبل أن أطلب الشاي ظهرت سائلة وجلست إلى مائدتي تطلب نقوداً؛ فأسرع النادل بالتدخل قائلاً: ”من فضلك اتركها يا عمّة؛ فهي ليست على ما يرام“، وأخذها من يدها، وأجلسها إلى مائدة أخرى وقدم لها كوباً من الماء محافظاً بذلك على ماء وجوهنا نحن الثلاثة، وحينما أردت أن أدفع ثمن الشاي، أخبرني أنه تشرف بتقديمه لي اعتذاراً عما تعرضت له من إزعاج في مكان عمله.

وها هي ذي قصتي مع أبله القرية! فصبيحة يوم أحد، وبينما كنت أستمع بالتجول في هدوء حول بلدة أغيردير، وأشاهد الآثار السلجوقية

الرائعة، أدركت فجأة أن ثمة رجلاً يراقبني دون أن يفعل شيئاً آخر؛ فلم أكرث للأمر ومضيت لما انتويت؛ إذ قررت الانتفاع بمزايا العصر الحديث، وقمت المرة الأولى بنقل الصور من مصوّرتي الرقمية إلى قرص بيانات؛ لأن المصوِّرة حديثة ولست معتادة على التعامل معها، وخشيت أن أُلقي هذه التبعة الكبيرة على عاتق متجر تصوير في هذه البلدة الصغيرة، وقد ضمت المصوِّرة ما التقطته من صور طوال الصيف، وستكون كارثة لو فقدتها في عملية النقل؛ استشعر صاحب المتجر قلقي حيال العملية، وحاول طمأنتي بكل الوسائل الممكنة؛ فأحضر من الخلف التقنية الشابّة المحبّبة لتريني أن فتاة مثلي يمكنها فعل ذلك، وبينما أخذت الفتاة الرّقاقة الثمينة إلى الغرفة الخلفية وربّنت على يديّ هداً صاحب المتجر من رَوْعي بأن أجلسني، وقدم لي الشاي، وعرض عليّ مجموعة صور للمنطقة، وأهداني مجموعة صور أخرى لمنطقة البحيرة الجميلة تذكّاراً، وما إن هدأت نفسي حتى دخل المتجر فجأة متعقبي طوال الصباح، وجلس في المقعد المجاور محدّقاً بي، ثم بدأ يهتمهم، فما أدركت أنه ضعيف العقل إلا حينئذ، وسرعان ما دخل في أعقاب رجل آخر، وأخبر صاحب المتجر أنّه ظلّ يراقب متعقبي طوال الصباح عندما لاحظ أنه يلاحقني؛ لم أشعر مطلقاً أنّ هناك شخصاً آخر يلاحقني طوال تلك الفترة، شخصاً طيباً يحاول الحفاظ على سلامتي سرّاً.

قيّم صاحب المتجر الموقف، واقتاد المعتوه إلى الخارج، ثمّ أجلسه تحت شجرة على الجانب الآخر من المتجر وقدم له الشاي؛ فأسرع الحراس بالخروج خلفهما ونصحوا الأبلّة بهدوء أن يترك السيدة الأجنبية وشأنها، ثم بقي معي حتى استلمت الرقاقة والأسطوانة المنسوخة من الشابّة المبتسمة، خرجت من المتجر وأنا أعلم أنني لست معرّضة لأيّ خطر، وأن متعقبي -الأبله- لم تكن لديه أدنى فكرة أنه أخطأ في شيء.

كانت لقاءاتي مع السلطات تتسم بالوقار والاحترام ولو كنت مخطئة؛ ففي إحدى المناسبات كنت أركب السيارة شرق الأناضول مع صديقة انتقلت إليها -وأسفاه- عدوى القيادة السريعة أعلى التلال، ولطالما شعرت بعدم الراحة إزاء ذلك -خاصة وأنا أجلس في المقعد الأمامي بجوارها- لكن لا أحد يفضل سماع التعليقات وهو يقود.

وذات ظهيرة قامت صديقتي بهذا السلوك المتهور، ولسوء حظها كانت هناك سيارة شرطة تتربص بأي مخالف في الجانب الآخر من التل؛ فأمرها الشرطي بالتوقف وجاء يتهاذى حاملاً مسدسه ومرتدياً نظارة الشمس القاسية! فلما اقترب منا تفحص محتويات السيارة بدقة، ثم طلب منها رخصتها وأوراق تسجيل السيارة بصوت أجش، ليدقق فيهما بجديّة حازمة؛ لا شك أنّ صديقتي المرتعدة تملكها الخوف، لكنني شعرت سرّاً بالسعادة؛ لأنها ستلتقى أخيراً العقاب على هذا التصرف الخطير... رغم أنني لم أعلم كيف سأخبر والدتها المسكينة في سان فرانسيسكو أنّ ابنتها محتجزة في سجن تركي! أعاد الشرطي الأوراق إليها ومال نحوها ثم قال ببطء وجديّة وحزم: إياك أن تفعلي ذلك مرة أخرى؛ هل تفهمين ما أقول؟ إياك وتكرار ذلك! ثم استدار وسمح لنا بالذهاب.

إن هذا الاعتراض الحازم -الوقور في الوقت نفسه- عكس الاحترام للأشخاص المعنيين جميعاً؛ وبالفعل لم تكرر صديقتي فعلتها مرة أخرى؛ وأيضاً لما قبض عليّ وأنا أصوّر منطقة عسكرية بحسن نيّة، لم أعامل إلا باحترام من المسؤولين جميعاً، بدءاً من الجنود حاملي المدافع الرشاشة في المقعد الخلفي للسيارة إلى الضباط في قسم الشرطة، بل بادروا جميعاً بتوفير سبل الراحة لي.

الغريب في الأمر أن الأتراك لا يقبلون أن يُعاملوا بالطريقة نفسها، ويجدون صعوبة بالغة في تقبّل التصرفات الطيبة من الآخرين؛ ففي أحد الأعوام قررت أنا وصديقتي أن نقدّم هدية لمدير فندق في أنطاليا؛ لنشكره على كل ما قدّمه لنا على مدار السنين، وقبل أن نغادر نيويورك اخترنا الهدية بعناية، وهي مجموعة أقلام قيّمة، ولدى وصولنا إلى الفندق تركنا الهدية سرّاً على مكتب الاستقبال ومعها بطاقة، وبعد مرور خمس دقائق سمعنا طرقاً على باب الغرفة، ووجدنا الحاجب يعيد إلينا الهدية؛ فشعرنا بالانزعاج ولم نفهم سبب إعادتها إلينا، وخرجنا لتناول العشاء، ولدى عودتنا وجدنا غرفتنا قد تغيّرت تماماً؛ فثمّة مناشف جديدة وملاءات مطوية وزجاجات عطر في الحمام وبرانس قطنية جديدة ملقاة على الفراش وأزهار في زهرّيات وسلّة فواكه ضخمة وبطاقة شكر... كلّ هذا في مقابل الهدية التي لم تُقبّل! ربّما شعر المدير بالحرّج من طريقتنا -التركيّة- في التعبير عن امتناننا، لكنه قدّر جهودنا فرد الصنيع بالطريقة التركيّة المعتادة.

من الوسائل الأخرى لتألّق الأتراك في التعبير عن طيبتهم المجاملات المتنوعة العذبة الصريحة المبتكرة؛ ولأنهم لا يخجلون مطلقاً من التعبير عن أنفسهم؛ فقد تجدهم في أغلب الأحيان صرّحاء جدّاً في عواطفهم، رغم أنّ هذه الرقة الصريحة نادراً ما تظهر بحرية في ثقافتنا الغربية، وقد ذكرت -يا سيدة ماري- مجاملة مؤثرة جدّاً قدمتها لك صديقتك فاطمة: ”بدأت أخبرها (فاطمة) عن الضبّة التي قد يثيرها جمال وجهها في لندن أو باريس! فأجابت بلطف: لا أصدقك، لو كان الجمال عالي الشأن في بلدك كما تقولين لما تركوك ترحلين“.

بعض هذه الإطراءات تمسّ شغاف القلب بالفعل، إنّ المجاملات

المصحوبة بالورود أو الآتية من خاطب طموح تكون رائعة بالطبع، إلا أن إطرء النساء لي أحبّ إلى قلبي، كإطرء فاطمة لك يا سيّدي!

ذات مرة كنت أتجولّ في متجر بقالة في قيصري لاختيار بعض الأصناف ومشاهدة صفوف السلع المعروضة للبيع، وهي تسلية تمتعني دائماً في أسفاري، شعرت أنّ هناك من يتعقّبني، وبلمح البصر التفت فوجدت شابة تعمل في المتجر؛ فمن الشائع جداً أن يُتّعَب المرء في متاجر البقالة الصغيرة والصيدليات في نيويورك، لكنّ هذا يعني دائماً شكّ حارس الأمن في قيامك بالسرقة، لكنّ تلك الشابة بدت مختلفة، وبدأت تقترب منّي مع كل مررٍ أقطعه، أخيراً دنت منّي وابتسمت لي ابتسامة عريضة، ثم أخذتني من يدي إلى قسم الفاكهة، وشجّعني أن أتفحص ثمار الخوخ لديها قائلة: ”إنها صابحة جداً!“ وظلّت تأخذني من رفّ إلى آخر، وتعرض عليّ بضاعتها بحماس كطفل يعرض لعبه المفضلة لأحد الضيوف، وأخيراً نظرت إليّ وقالت: ”أنا معجبة بك، فلديك عيان جميلتان؛ أنت جميلة! من فضلك عودي مرة أخرى عسى أن نصبح صديقتين!“ بالفعل كنّا سنصبح صديقتين مقربتين كصداقتك أنت وفاطمة؛ فهذه المرأة المحببة لا تُقاوم، مثلها مثل الفتاة ذات الاثني عشر ربيعاً التي كانت تساعد والدها في أحد مطاعم أكتشابات لنقص العاملين تلك الليلة؛ قدّمت لنا الطعام باحترافية كاملة تتوقعها من كبير نُذُل مخضرم في مطعم ذي نجوم أربعة؛ تصرفت الفتاة بطريقة فتاة المتجر نفسها؛ فلم تتركني لحظة، بل ظلّت إلى جوارِي عندما ذهبت إلى الحمام، وفتحت لي صنبور الماء، وقدّمت لي منشفة، وفتحت لي الباب لأخرج، وعلى المائدة ظلّت تحوم حولي؛ لتضع المّلّاحة أمامي، وتصبّ لي الماء، وتطوي منديلي استجابة لأيّ حركة من حركاتي؛ وحينما استفسرت من صديقي التركيّ عن سبب اهتمامها بي ضحك قائلاً: إنها معجبة بك!

فقد أخبرتني أنها تجدك جميلة جداً؛ بالطبع عندما حان وقت الرحيل، اقتربت الفتاة ولوّحت لي مودّعة، ولما وصلت باب المطعم نادت بأعلى صوتها حتى سمعها من في المطعم جميعاً: أنا معجبة بك جداً!

أخبرتكم سابقاً يا سيدة ماري، أن تركيا بلد اللفتات الصغيرة المؤثر بعضها بدرجة هائلة، واللفة التركية المفضّلة لديّ هي ما أطلق عليه ”اليد السحرية“: فإذا كان بمقدور الشخص التركي أن يمدّ يد العون في أيّ موقف، فسيمدها؛ فتلك الأيدي لن تكفّ عن المساعدة؛ يدرك الأتراك سلفاً ما يجب عمله، ويسارعون بتنفيذه كأنما يحملون في أيديهم العصي السحرية.

وصلت متأخرة ذات ليلة إلى محطة حافلات توقّات لأجد المكان يعمّه الهرج، واكتشفت أن السبب عطلة الجنود، كانوا عائدين إلى منازلهم وأسرهم الكبيرة في استقبالهم، نزلت من الحافلة وتركت حقيتي على الأرض لحظات كي أضع شيئاً في محفظتي، وعندما نظرت ثانية كانت قد اختفت! نظرت حولي بعد أن تملّكني الرعب، فرأيت رجلاً تركياً قصيراً قويّ البنية يركض ممسكاً بحقيتي تحت إبطه؛ فانطلقت أجري خلفه ورأيت من بعيد يضعها عند بداية موقف سيارات الأجرة، لم يكن يعرفني، لكنّه عرف أنني نزلت من تلك الحافلة وحدي، وليس لي عائلة تنتظرنني، وأتني سأحتاج إلى سيارة أجرة، وعلى الفور امتدت يد المساعدة السحرية الخفية فطرياً لتحمل الحقيبة، وبعد أن وضعها، عاد مسرعاً ليساعد الأسرة التي حضر معها دون أن يوجه إليّ كلمة واحدة أو يدعني أشكره.

وفي مناسبة أخرى في قيصري، كنت أنتظر الحافلة ومعني حقيبة ثقيلة وإلى جوارِي فلاحة ترتدي سروالاً فضفاضاً وتحمل طفلاً بين ذراعيها، حينما انفتح باب الحافلة بمثل لمح البصر، احتضنت المرأة فوراً رضيعها

بذراعيها ثم وضعت على فخذها، وأمسكت مقبض حقيتي بيدها الأخرى، ثم بدأت ترفعها على السلاالم؛ لقد امتدت يدها تلقائياً، ومنحتني في لحظة خاطفة الدفعة الأولى؛ لتجعل تحدي صعودي السلمي سهلاً.

أخبرتكَ قَبْلًا أَنَّ هناك تركيًّا خلف كل شجرة يراقب ما يحدث، لا يمكنني أن أحصي عدد العيون والأيدي الخفية التي تعتنني بي كأنها ملاك يحرسني، مثل ذلك الرجل في أيردر؛ فهم جميعاً دائماً يحرسوني، ليتأكدوا أنني ركبت الحافلة الصحيحة، أو دخلت من الباب الصحيح، أو اخترت أفضل ثمرة خوخ، لا تكلف هذه اللفتات شيئاً ويمكن لأي شخص أن يقدمها، لكنها أثمن في عفويتها من الخمسين صنفاً التي قدمت لك يا سيدة ماري!

سبق أن حدثتك عن بساتين الورد التي عُرضت عليّ على مدار السنين، لكن الأمر أكبر من ذلك؛ فعندما تتعثرين، يرفعونك ويقدمون لك مقعداً بمنتهى الحنان، وعندما تشعرين بدوار نتيجة الحر الشديد يقدمون لك كوباً من الماء لينعشك؛ وهم مستعدون لمنحك تذاكر للحافلات، وعندما تكونين وافقة على جانب الطريق في انتظار الحافلة يعرضون توصيلك إلى المدينة في عربة المزرعة، وعندما تدخلين إلى صيدلية لشراء الأسبرين، يقدمون لك مقعداً لتستريحين وكوب ماء، وهم مستعدون لغلق متاجرهم وأماكن عملهم لاصطحابك إلى أماكن مختلفة، والأغراض التي تنسينها في سيارة الأجرة يعيدها السائق إلى فندقك، ويقدمون لك ثمار الفاكهة وأكواب الشاي كلما سنحت لهم الفرصة، تتجلى هذه الطيبة في أحمد موظف استقبال الفندق في توقات يختتم برقيقته لي بوجه مبتسم وعبرة "حفظك الله".

ذات مرة كنت في زيارة لمدينة كرامان ذات الواحة، وأردت زيارة خان الولي الشيخ علاء الدين كراباش، لكنني لم أتمكن من الوصول إليه؛ كنت أشعر بالحرارة الشديدة والإحباط لكنني عقدت العزم على العثور عليه؛ لهذا دخلت متجر حلاق وطلبت مساعدته في معرفة الاتجاه الصحيح؛ بدأ الحلاق يُشاور زبوناً أمامه، ثم أجنبي: "لا توجد مشكلة!" وترك الرجل جالساً في المقعد ووجهه مغطى بالرغوة، واصطحبني إلى المجمع وكان بعيداً!

أما في مدينة قيصري، فقد ذهبت صباح أحد أيام الآحاد مبكراً لأزور أطلال قصر كيقوبادية على أرض مصنع السكر والمياه، ولمكانة دليلي المؤرخ محسن إلياس صوباشي -فضلاً عن قدرته الهائلة على الإقناع-؛ استطعنا إقناع الحارس المناوب أن يسمح لنا بالدخول، لكنه وافق بشرط أن يظل ملازمًا لنا لأسباب أمنية؛ وفور انطلاقنا في الطريق صاح فجأة: توقفوا! كاد قلبي يتوقف خشية أن يكون قد غير رأيه بشأن السماح لنا بالدخول، لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد دخل أحد المباني وعاد مسرعاً إلى السيارة حاملاً بين ذراعيه الكثير من زجاجات المياه والصودا الباردة لناخذها معنا، واتضح لنا أنه لم يكن يعرف أنه لا يحرس مصنعاً فحسب، بل قصر أعظم السلاطين السلجوقيين علاء الدين كيقوباد؛ سيظل للأبد يتذكر درس التاريخ المذهل الذي تلقاه ذلك اليوم من هذا المؤرخ الشهير، وسأظل أتذكر زجاجات المياه التي أهداها لنا!

ومن أمثلة اللفتات الصغيرة الأخرى ما قام به عامل بناء يعمل في مستشفى مدينة أماسيا، عندما اصطحبني إلى موقع الترميمات المغلق وأخذني في جولة حول المكان؛ لأنه شعر بفضولي واهتمامي بما يفعل.

تلقيت لفتة أخرى صغيرة في حيّ سافرانبولو في متجر مَلَبَن رائع يرجع إلى عام ١٩٤٢م، ويتميّز بسلامة زجاجه الأصليّ المصقول وزينته الخشبيّة المنحوتة، رأيّ صاحب المتجر من المدخل، وشعر أنني سيغشى عليّ في الشارع؛ فخرج، وأمسكني من ذراعي، وأدخلني إلى متجره، وقرب لي مقعدًا لأستريح عليه.

تعرضت لموقف آخر في توقات في متجر لبيع الفاكهة، فقد شعرت أيضًا أنني سأفقد الوعي بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وسرعان ما قدّم لي قفص خوخ لأجلس عليه، وفي اللحظة عينها دخل صبيّ صغير إلى المتجر لتسليم الغداء لصاحب المتجر -خبز تركيّ بالجبن مخبوز في الفرن-، فوضع المالك اللفافة الدافئة على حجري وكلّه جديّة، وقال: تفضلي، لا بدّ أن تأكلي هذا كي تتحسني! ولم تفلح كلّ اعتذاراتي في تغيير رأيه أو إقناعه بأن يأكل معي على الأقلّ.

لا يقتصر الأمر على الخبز التركيّ والشاي والزهور التي يغرقني بها الأتراك، بل كلّ أنواع الفاكهة أيضًا؛ كنت في أماسيا ذات مرة، وكنت قد قضيت أربعين دقيقة في حمام السباحة، وحينما خرجت وجدت على الطاولة الصغيرة بالقرب من مقعدي صحنًا لم أطلبه، فيه ثمرة خوخ مقشرة ومقطعة وبجوارها كوب من العصير الصابح، وكذلك عندما كنت أزور مسجد الإمام عمر بك في بورصة، كنت مأخوذة بمشاهدة حجر الأساس العائد إلى عام ١٤٥٤م المعلق بجوار الباب على لوحين منفصلين من الرخام، حتى إنني لم أنتبه للصبّي الذي اقترب منّي، ثمّ قام ببطء مادًا كفيه المضمومتين إليّ، بدت بداخلهما حبّات من اللؤلؤ الثمين؛ كانت في الواقع حبّات التوت الأبيض الصابحة، جمعها لي من الشجرة في ساحة المسجد؛ إنها المرة الأولى في حياتي أذوق هذه الثمار الغضة عسليّة المذاق.

أما في قونيا، فقد قطف لي حارس مدرسة قاراتاي ثمار المشمش الصباحية من الحديقة، وكان ذلك موقفًا آخر أتاح لي فرصة الاستمتاع باللفتات الصغيرة المذهلة، كذلك تلقيت دعوة لزيارة دير الشيخ تورسان على قمة أحد الجبال النائية في الطريق بين قيصري وأورجوب، وقبل الذهاب إلى هناك بالسيارة "الجيب" توقف مضيفي شعيب توركر عند متجر بقالة لشراء الفاكهة الصباحية ليهدئها للبواب وأسرتة، وحينما عرضت الإسهام في ثمنها، قُوبل عرضي بالرفض طبعًا، بل وأشعرتني مضيفي أنني ارتكبت ذنبًا فادحًا في حقّه.

ما إن وصلنا إلى الدير وأنزلنا حقائب البطيخ والخوخ والمشمش والعنب الكثيرة من السيارة حتى وضعها شعيب كلها بين يديّ، وفور خروج البواب وأولاده للترحيب بنا، دفعني شعيب برقة وقال لي: "تفضلني! لا تخجلي، قدمي لهم الفاكهة!" كانت هذه طريقته في مساعدتي على التعرف إلى الأسرة وإقامة صداقة معهم، كأنما كان إحضار الفاكهة لهم ودفع ثمنها مني أنا!

غير أن أكثر اللفتات الصغيرة تأثيرًا في النفس تلك التي يقدمها لك الفقراء الذين لا يملكون شيئًا لتقديمه سوى طيبة قلوبهم، فسمو بهم لفتاتهم إلى مكانة من النبل أعلى من مكانة السلاطين؛ ذات مرة وأنا في توقات جلست على الجدار المنخفض المحيط بمسجد هاتونية أتتظّر انتهاء شعائر الصلاة كي أتمكن من دخول المسجد والتجول فيه، فذبّ نحوي رجل محدودب الظهر يتعلّ حذاء لامعًا وأعطاني غرارة لأجلس عليها، كانت متسخة أكثر من المكان، لكنّ المهمّ أنه قدّم لي شيئًا، ورغم فقره استطاع أن يقدم لي شيئًا مفيدًا.

اتضح لي فيما بعد أن أهالي توقات يسعدون بتقديم الوسائد؛ ففي مناسبة أخرى كنت خارج مسجد جارييلر أنتظر انتهاء الصلاة لأدخل، رأني عجوز من نافذة منزلها المجاور، فخرجت حاملة سجادة كليم ملونة لأجلس عليها.

سيدة ماري، هل سبق وقمت بعمل هين يراعي الآخرين بصدق؟ لا أعتقد أنني فعلت، وقد مررت مرتين مختلفين بتجارِب لا تُنسى تعكس كرمًا لأشخاص فقراء؛ حينما كنت أزور أحد أحب المساجد في تركيا إلى قلبي: مسجد مراد الأول خودافاندجار على قمة تلّ تشيكيرجيه في بورصة، يرقد في هذا المجمع الروحاني الهادئ جثمان السلطان مراد الأول -أحد أشهر السلاطين العثمانيين- في ضريح بالجهة المقابلة لمسجده الهائل، وثمة حديقة شاي تحيط بالضريح، وقد اعتدت التوقف للاستمتاع بالأشجار والأزهار هناك، والاستماع إلى حفيف الأشجار في هذه البقعة المرتفعة فوق المدينة، ومراقبة المسجد المهيّب من الجهة المقابلة للشارع، والتفكر في حياة هذا السلطان المأساوية المنتهية بمقتله في معركة كوسوفا على يد صربيّ غاضب... وأنا جالسة هناك ذات مرة، اقترب منّي شيخ مُعْدِم ومدّ إليّ يده -المتسخة جدًّا- بإحدى ثمار الخوخ البورصيّ الشهير، وعندما نهضت لدفع ثمن الشاي أخبرني النادل أن ثمنه قد دُفع؛ كان الشيخ فقيرًا ويدها متسختان، ورغم ذلك منحني ثمرة خوخ صابحة وكوبًا من الشاي كما لو أنّه دعاني إلى وليمة.

وفي مناسبة أخرى بعد زيارة طويلة للمسجد كنت متعبة في نهاية اليوم حتى إنني لم أتمكن من هبوط التلّ؛ لذا قررت أن أستقلّ سيارة أجرة إلى الفندق، وقبل أن أركب، اصطحبني السائق إلى مؤخرة السيارة، وفتح حقيبتها، وتناول رغيفًا من أكثر من عشرة أرغفة ساخنة

اشتراها لأسرته على مائدة العشاء، كانت رائحة الخبز شهية كما لو كانت حقيبة السيارة مخبأ صغيراً! ثم وضعه بين يديّ قائلاً: ”تفضلي! هذا لعشائك!“ لقد فعل مثل ذلك الشيخ في حديقة الشاي، أهداني ما توفرّ لديه، الأمر الذي أضفى على الهدية سخاء وجوداً.

غالباً ما يقدّم سائق سيّارة الأجرة أكثر من مجرد توصيلة، كما أوضحت سابقاً؛ وأنا في طريقي إلى مطار توقات لأستقلّ الطائرة العائدة إلى إسطنبول حاورت السائق، فأخبرته عن مدى إعجابي بالمدينة أكثر من كلّ مدن تركيا؛ فسألني عن الأسباب، وكلّما أخبرته بسبب أوما برأسه وابتسم، وفجأة توقفنا على جانب الطريق وخرج من السيارة واختفى! وعندما بدأت أسأل نفسي عمّا يفعل وخشيت أن تفوتني الطائرة، عاد مسرعاً وفتح باب السيّارة ووضع في حجري كيساً بلاستيكيّاً به ثلاثة أكياس من ثمار الخوخ الناضجة، وقال: هذه لك، إنها هديّة صغيرة لتذكّري بها توقات؛ كي لا تنسينا في المدينة الكبيرة إسطنبول، فرغم حاله المتواضع، منحني هديّة ثمينة، ولا داعي لأن أوكد أنّها كانت الدّ ثمار خوخ تناولتها في حياتي.

أرقّ لفظة تلقيتها كانت من مجموعة مراهاقات في سيواس؛ ذات ظهيرة عرّجت على حديقة شاي رائعة في ميدان كوناك الرئيس بوسط المدينة لأستريح قليلاً، لاحظت وأنا أحتسي الشاي ستّ مراهاقات جالسات على الطاولة المجاورة يحترسين الشاي ويتحدثن ويضحكن ومعهنّ لفّة بها قالب كعك منزليّ الصنع، ربّما كنّ يحتفلن بيوم ميلاد إحداهنّ أو بانتهاء العام المدرسيّ أو ربّما يستمتعن بصداقتهنّ، كنت مستغرقة جدّاً في أفكاري وفي كتاب أقرؤه حتى إنني لم أنتبه للفتاة القريبة من طاولتي، كانت تحمل في يدها قالب الكعك المنزليّ مقطّعاً شرائح، قرّبت الصحن

منّي وقالت: تفضلي! يسعدنا أن نقدّم لك شريحة من كعكتنا، أتمنى أن تعجبك؛ فقد صنعتها بنفسي! تأثرت كثيرًا بمنحي الشريحة الأولى، والأهم من ذلك والغريب في الوقت ذاته أنّ ذلك اليوم صادف يوم ميلادي، وكأنّ الفتاة علمت ذلك! ومن بين كلّ الكعك بالقشدة اللذيذ المزيّن في احتفالات يوم ميلادي، لم أذق كعكة ألذّ من هذا القلب المجرد؛ إذ قدّمته فتاة لا أعرفها تعلو وجهها ابتسامة عريضة.

يتمتع الأتراك بشخصيّات قويّة تتوافق مع جوهرهم الحنون الرقيق، ويمكنهم تقديم لفتات كبيرة بخلاف تلك اللفتات المتواضعة، فعلى سبيل المثال: أزلت عدساتي اللاصقة في بداية رحلة من نيويورك إلى إسطنبول، فطارت العدسة -وا أسفاه- في الهواء، ولم يحدث هذا من قبل، ولم أعلم أين وقعت؛ ظلمت أبحث حول مقعدي لكنّ العثور عليها في منطقة مغلقة ومزدحمة كالطائرة كان ميثوسًا منه، وبعد أن حطّت الطائرة وعبر الجميع الممر المجاور لي، قرّرت أن أبحث مرّة أخيرة في المنطقة المحيطة بمقعدي، وسرعان ما انضمت إليّ أربع مضيفات وهنّ عازمات على العثور على العدسة، ورغم إرهاقهنّ عقب رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة ولهفتهنّ أكثر منّي على مغادرة الطائرة الحارّة، لم تبدّ عليهنّ أدنى أمارّة للاستسلام، وظللن يزحفن على أيديهنّ وأرجلهنّ كأطفال صغار يبحثون عن كنز، وفجأة صاحت إحداهنّ: وجدتها! ما زلت لا أعلم كيف عثرت تلك الشابة على شيء بهذا الحجم! وكيف ظلت العدسة سليمة طوال الوقت! لكنّ الفتاة آمنت أنّها تستطيع أن تعثر عليها، ولأنّها تركيّة تتميز بالثابرة والعناد فقد تمكنت من تحقيق معجزة.

تكون اللفة الطيبة الكبيرة سرّيّة أيضًا؛ حينما كنت في متجر لبيع الكتب في قيصري أراد صاحبه أن يمنحني هديّة، ووضع كتابًا بين يديّ،

لم يكن كتاباً عادياً، بل كان مجلّداً بجلد أحمر زُيّنَت حروفه وحوائفه بالذهب، تفحصت الغلاف، فوجدت الكتاب نسخة فاخرة من الترجمة الإنجليزِيّة الجديدة لمعاني القرآن الكريم؛ كلّ سورة مترجمة تسبقها صفحة من التنبيهات التوضيحيّة مع صورة للنصّ العربيّ الأصليّ في هامش جانبيّ صغير؛ بوصفي أمانة مكتبة انبهرت بالمستوى الرفيع للطباعة، وبوصفي ضيفة تأثرت لمحاولة هذا الرجل فتح باب هائل في حياتي عبر هذه الهدية.

كثيراً ما يمكن محو الحوادث المؤسفة بتلك اللفتات الكريمة؛ ذات مرة ركبت الحافلة من أغيردير إلى قونيا، وأول مرّة منذ ثلاثين عاماً من السفر أجلس في آخر الحافلة في الصفّ الأخير وبجواري رجل، كان الموقف مفاجئاً، ولا بد أن أعترف أنني انزعجت، لكنني راجعت نفسي وتذكرت جلوسي كلّ صباح في قطار الأنفاق بجوار رجل، إذا ما سبب انزعاجي؟ لم أنتبه للرجل بجواري، ولم ألحظ سوى أنه كهل ضخّم اليدين، وفجأة بدأ يهتمهم؛ فوقع في نفسي حينها أنه يتصرف بوقاحة، ورغم أنني تعرضت لهذا الموقف عدّة مرات في قطار الأنفاق في نيويورك وباريس، فلم أتصوّر أن أتعرّض له في تركيا، أول مرة أجالس رجلاً في المواصلات العامة؛ وهذا ما ضايقني بشدة، فأخذت حقيتي ووقفت فجأة واندفعت نحو السائق ومساعدته، وطلبت تغيير مقعدي فوراً، ورغم أنني لم أوضح السبب، فعلى الأرجح أدركا ما حدث، وفي الصباح التالي استيقظت فجأة الساعة الخامسة صباحاً من نوم عميق واندفعت من الفراش أصرخُ: المصوِّرة! أين ذهبت؟ كيف علمت أنها لم تكن في حقيتي! وكيف جاءني هذا الخاطر في تلك اللحظة بالذات أثناء نومي! لن أعرف إجابة هذين السؤالين أبداً! قلبت الغرفة رأساً على عقب، لكنني لم أجد شيئاً كما أخبرني الحلم الذي راودني، وتذكرت الفوضى وموقف

الحافلة أمس قبل وقوع المصوِّرة من حقيبتني، فأحضرتُ عُقبَ التذكرة وانطلقت إلى محطة الحافلات، وتوجَّهت إلى مكتب شركة الحافلات وسردت قصَّتي؛ قام الموظف بإجراء بعض الاتصالات وقال لي بعد خمس دقائق: تفضلي بالجلوس يا سيدتي، سيحضرها أحدهم الآن، فقد عثروا على شيء ما؛ وفورًا ظهر كوب من الشاي أمامي، تمنيت بشدة أن ما عُثر عليه هو المصوِّرة؛ ففيها صور الصيف كله، وضياعها يعني ضياع رحلة كاملة وذهاب الوقت والنقود سُدى، بعد مرور خمس عشرة دقيقة ظهر ستة شبَّان فيهم مساعد السائق في حافلة أمس، وكانت مصوِّرتي معهم، بدأت أبكي من الإحباط وألوم نفسي على إهمالي الشديد وإضاعة تلك المصوِّرة القيِّمة، وشعرت بالحزن كلَّما تذكرت الموقف، كما أدركت أنها الذكرى الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر المؤلمة لأهالي نيويورك جميعًا؛ لم أتمكن من التوقف عن البكاء، رغم أنني بدأت أشعر بالراحة والقليل من الخجل، وأخيرًا هممت للرجال ببعض كلمات الشكر وخرجت، ثم أدركت مدى فظاظتي؛ فمسحت دموعي وعدت للموظف وأخبرته أنني أريد أن أقدم لهم جميعًا شيئًا صغيرًا تعبيرًا عن امتناني، فأجابني: كلاً يا سيدتي، نحن الذين نود أن نشكرك على منحنا هذه الفرصة لنخدمك؛ وأعادت ابتسامته كلَّ الأمور إلى نصابها.

كما أشرت من قبل، فإن الأتراك يتمتعون بنظام رادار داخليّ يتيح لهم التقاط كلِّ ما يحدث حولهم، فلا شيء يفوتهم ألبتة؛ في أحد الأعوام قررت في عطلة عيد الميلاد أن أصطحب زوجي إلى إسطنبول، وراسلت فندق "أرينا" أطلب منه حجز غرفة مميّزة لنا؛ لأنَّ هذه الرحلة هدية مني لزوجي في عيد ميلاده، وبالفعل عندما وصلنا وجدنا الفندق قد خصَّص لنا أفضل غرفة تطلُّ على جامع سوكوّلُو محمد باشا؛ أهم جوامع المعماريِّ سِنان، وفي ليلة رأس السنة الموافقة ذكرى ميلاد زوجي عدنا إلى الفندق

متأخرين بعد الظهيرة نشعر ببرد تغلفه السعادة بعد رحلة طويلة بمركب شراعي في البوسفور، وعقب وصولنا بدقائق سمعنا طرقاً على الباب، وعندما فتحت وجدت نادلاً يحمل صينية عليها أطباق ومناديل وكعكة فاخرة غالية تزينا الشموع بجوارها بطاقة من العاملين في الفندق يتمنون لزوجي عيد ميلاد سعيد! لا بدّ أنهم لاحظوا تاريخ ميلاده في جواز سفره، وتذكروا طلبي في البداية، فأخذوا على عاتقهم مهمة إضفاء لمستهم الخاصة على عيد ميلاده، ورغم أنّ الكعكة كانت مزينة ومزخرفة أكثر من الكعكة الرخيصة التي تلقيتها في سيواس، فقد شعر زوجي بشعوري نفسه؛ شعر أنّه لم يتذوق في حياته كعكة عيد ميلاد ألدّ منها.

لا تقتصر هذه اللفات الكريمة على تركيا فقط؛ فالأتراك يحملون هذه السمة في تكوينهم أينما ذهبوا، ويتصرفون وفقاً لها أينما حلّوا، عندما كنت أعيش في باريس اعتدت تناول الطعام في مطعم تركي صغير، ونشأت بيني وبين العاملين هناك صداقة، وذات مساء أبلغتهم أنني سأنتقل إلى شقة جديدة غداً، وأخبرتهم كم أنا سعيدة بالانتقال إلى حيّ أرقى! وسألني ميتن رئيس النُذُل: "أين تقطنين الآن؟ وإلى أين ستنتقلين؟" فأجبت دون انتباه، وكان عليّ أن أنتبه! في تمام الساعة الثامنة صباح اليوم التالي بينما بدأت أنقل أمتعتي من الشقة إلى سيارتي الصغيرة، وقفت شاحنة صغيرة بيضاء أمام منزلي، وترجل عنها ستّة أتراك مفتولو العضلات لا يتحدث أيّ منهم الفرنسيّة، قال لي أحدهم: "أرسلنا ميتن لنساعدك في الانتقال اليوم كي نضمن أنّ كلّ شيء على ما يرام، فأصابني الدهول، واندفعوا أعلى السلالم كما تصعد السناجب الشجرة بسرعة، وفي وقت قصير كانت أيديهم السريعة وعضلاتهم القويّة قد وضعت كلّ شيء في الشاحنة، وقادت الشاحنة إلى عنواني الجديد، وحملت كلّ شيء إلى الأعلى مرّة أخرى عبر ستّة ممرات طويلة ضيقة وصولاً إلى شقتي

الجديدة تحت ظلة سقف باريس، أتموا المهمة كلها في أقل من ساعتين ثم اختفوا في لمح البصر دون أن تُتاح لي الفرصة أن أقدم لهم كوب ماء أو وجبة غداء أو هدية أو أن أشكرهم، قاموا بذلك؛ لأنّ ميتن علم أنّ امرأة بمفردها تحتاج إلى المساعدة، فطلب مساعدتهم، قاموا بذلك؛ لأنّهم رجال يجودون بوقتهم وقوتهم؛ لم أشعر بالسعادة في أيّ منزل آخر طوال حياتي كما شعرت بها في ذلك المنزل المرتفع في الطبقة السادسة في باريس، وأنا مقتنعة أنّ السبب يرجع إلى البداية المبشرة لحياتي فيه بفضل طيبة هؤلاء الأتراك وكرمهم.

سيدة ماري، هذا ما عَينُهُ عندما أشرت في بداية رسالتي إلى الأمور التي لامست شغاف قلبي، فهذه اللفات الكريمة - المتواضعة العظيمة - من أقيم الهدايا في حياتي، ولن أقبل التنازل عن أيّ منها مقابل أيّ شيء في الدنيا، لن أتنازل عن شريحة قلب الكعك، ولن أتنازل عن دقيقة قضيتها على الوسادة المترّبة، ولن أنسى يداً امتدّت لمساعدتي، لقد زادت هذه اللفات الرائعة من ثراء تجربتي في حياتي.

صديقتكم

قدريّة براننج



كعكة عيد الميلاد التي أهداها فندق "أرينا" إلى ستيفن إي جوتليب، إسطنبول في
الثالث من ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٥م

الرسالة الثامنة عشرة

مكنونات نفيست

عزيزتي السيدة ماري،

وُلدت في أحد أرقى المنازل في إنجلترا: قصر ثورسي هول المهيّب في ريف نوتنجهامشير المخضّر على الدوام، المشيّد بهندسة المعماريّ الإيطاليّ بالاديو، ويضمّ مئتين وخمسة وسبعين غرفة، على ضيعة من مئات الأفدنة تنتهي بأرض لصيد الغزلان، وبحيرة مساحتها خمسة وستون فداناً، وقناة تمتد رُبع ميل لتعبر الحدائق الرسميّة وتغذي عدّة فوّارات؛ كلّ هذا أهلك للموازنة بين منزل أسلافك للمصمّم الإيطاليّ بالاديو ومنزل الشريف التركيّ حيث أقمت في أدرنه، وكالعادة لم تغفل عينك الثاقبة عن أيّ شيء؛ فقدّمت لنا وصفاً مفصّلاً لأدقّ التفاصيل المعماريّة والأثاث:

”ينقسم المنزل -كبيراً كان أم صغيراً- إلى قسمين منفصلين يربطهما ممرّ ضيق؛ أمام الأول ساحة كبيرة، وحوله شُرْف مفتوحة، وهو أمر أجده ملائماً جدّاً؛ تؤدي هذه الشُرْف إلى العُرف كلّها الواسعة في الأغلب ذات الصفّين من النوافذ، أحدهما من الزجاج الملوّن... يخصّ الشريف، بينما يُطلق على المنزل المجاور اسم حريم الدار، أي: شقّة السيّدات... وهي أكثر بهجة وروعة سواءً في ألوان الطلاء أم نوع الأثاث؛ أمّا ثاني الصفّين، فمخفض

جدًّا تغطّيه قضبان متوازية تشبه قضبان الأديرة... لا توجد ستائر ألبتة؛ لأنّ الجدران الداخلية للغُرف مغطّاة بخشب الأرز المزيّن بمسامير فضيّة أو المزخرف بنقوش الأزهار، وفيه عدّة أبواب مصاريعها قابلة للطّي يمكن استخدامها خزانات، أجدها في رأيي أكثر نفعًا ممّا لدينا، تتصل النوافذ بقناطر صغيرة لوضع جرار العِطر أو سلال الزهور، لكنّ أكثر ما يسعدني الفوّارات الرخاميّة أسفل الغرفة؛ إذ تنبثق منها عدّة فوّحات معًا، فتضفي برودة رائعة وتصدر خريّرًا ممتعًا... ويحتوي كلّ منزل على حمّام من غرفتين صغيرتين أو ثلاث...

إنّ وصفك يشبه كثيرًا المنازل العثمانيّة المرمّمة التي زرّتها في تركيا، وقد حوّل أكثرها إلى متاحف في مدن مثل: كوتاهيا، وبيرجي، وسيواس، وتوقات، وديار بكر؛ ساعدتني هذه المتاحف على تخيل حياة أصحابها، كما شغلّتك حياة الناس في منزل "الشريف التركي" في أدرنة؛ علمت منها أنّ الجدران كانت تُبيّض بالجصّ، وأنّ الأرضيّات كانت تُغطّى بكليم أخضر شاحب، ولاحظت الاعتناء الشديد بتفاصيل المشاهد البهيّجة على الجدران والأسقف الخشبيّة، وكيف أنّ الخزانات المحفورة في الجدران امتلأت بأنواع المنسوجات كلّها اللازمة للحياة، مثل: مناديل المائدة، والمناشف بالإضافة إلى القدور النحاسيّة، والزهرّيات التي رأيت مثلها في أدرنة.

أثناء النهار تظلّ المُلءات والدُّثُر الخاصّة بأفراد الأسرة في هذه الخزانات أيضًا، فيوفّر ذلك مساحة واسعة جيّدة التهوية تشبه الأريكة على الأرضيّات؛ لتمارس الأسرة كلّ أنشطة حياتها الاجتماعيّة، مثل: استقبال الضيوف، وتناول الطعام، وملاعبة الأطفال، وتأدية الصلاة، والقيام بالأشغال اليديويّة، تمامًا كما يحدث في المنازل القرويّة حتى يومنا هذا.

كان الأثاث أهمّ ما استرعى انتباهك، وحاز إعجابك في المنازل التركية؛ وهي آرائك تقليديّة منخفضة منضودة بطول جدار النافذة، بالإضافة إلى تجويفات الجدران الناتئة من الأدوار العليا:

”كلّ الغرف مفروشة بسجاجيد فارسيّة ترتفع مقدار قدمين في أحد أطراف الغرفة فيما يُعرف بالأريكة، وهي مغطاة بنوع أثمن من السجاجيد، ويحيطها مصطبة مرتفعة مقدار نصف قدم مغطاة بالحرير الثمين... ويتراصّ حول ذلك كلّ صفّان من الوسائد المستندة إلى الجدار، الصفّ الأول للوسائد الكبيرة والثاني للصغيرة، وهنا تتجلّى عظمة الأتراك وأبهتهم... توفرّ هذه المجالس الراحة والرغد حتى ظننت أنني لن أتحمّل الجلوس على مقاعد ما حييت“.

من بين متع الحياة السهلة الرائعة في تركيا أن تجلس القرفصاء على المصطبة المنخفضة متكئاً على أريكة بين وسائد ملوّنة، وحولك أصدقاؤك يشرثرون، ويحتسون الشاي، أو تجلس في تجويف النافذة لتشاهد المارة.

رغم أنّ تلك القصور العثمانيّة المرمّمة تثير الإعجاب حقاً، إلا أنني أفصّل في تركيا المنازل العاديّة المتواضعة التي حظيتُ بشرف النزول ضيفة عليها؛ تعدّ المنازل التركية موئلاً للسكينة، ومركزاً للسعادة الأسريّة وعماداً للمجتمع كلّ، وتسمّ بأنها دائماً مليئة بالضوء والهواء والراحة والودّ، قد تكون مكتظة بأثاث عصر الباروك المترف المفضّل لدى أبناء المدينة المعاصرين، وقد تكون مؤنّثة بمصاطب وآرائك عاديّة منخفضة مغطاة بالكليم، أيّاً كان ذوق الأثاث، فإنّ العامل المشترك بين المنازل التركية الحديثة والتقليديّة هو السجاجيد المذهلة؛ إذ يبدو أنّ الأتراك يتمسّكون بشدة بأصولهم البدويّة، وستظلّ تلك السجاجيد -سواء آليّة الصنع أم يدويّة- أروع دليل على ذلك، فضلاً عن الأزهار في أرجاء

المنزل كلّهُ، ستجد طاقة ورد صناعيّة على مائدة جانيبّة أو زهوراً في أوعية على النافذة أو في المدخل بصفائح زيت الزيتون أو زهوراً مرسومة على الستائر والسجاجيد والصور وأباريق الشاي أو زهوراً منحوتة في أقواس القباب التي أشرت إليها يا سيدة ماري؛ في المنازل التركيّة ترمز الأزهار إلى الحياة والخير، وهبّت الله المتمثّلة في زهرة مبهجة الألوان عطرة الرائحة نبتت بفضل الأمطار الهاطلة من السماء، وفتحت كأنها الأسرة التركيّة الضاربة بجذورها في تربة المنازل التركيّة المباركة.

الملحوظة الأخرى أنّ المنازل كلّها بدءاً من القصور المترفة إلى الأكواخ القرويّة تشعّ نظافة، تجدين المنازل التركيّة نظيفة طاهرة على عكس الطرقات الموحلة والفوضى العامّة بالخارج؛ معك كلّ الحقّ -يا سيدة ماري- في قولك: "إنّها الحقيقة؛ لا يهتمون ألّبتة بتجميل خارج منازلهم..." "أندش دائماً؛ فبالرغم من سداجة المباني من الخارج، وقذارة الشارع المواجه لها وصخبه وعنفه، فإنّ مجرد الدخول إلى أيّ منزل تركيّ يغمرك إحساس بالسكينة في مكان يشعّ نظافة ونظاماً؛ لا يدخل أحد منزلاً تركيّاً دون أن يخلع نعليه أولاً، كي لا تدنّس قذارة الشارع حرمة المنزل ونظافته؛ لاحظت ذلك أنت أيضاً يا سيدة ماري: "يحافظ على نظافة منازل السيّدات النبيلات في تركيا بالقدر نفسه في المنازل الهولنديّة".

ثمّة منزلان زرتهما في تركيا ولم يفارقا مخيلتي، وصفت لك من قبل شعور أن يستقبلك أهل منزل تركيّ ويتبنوك؛ في كلّ مرة أدخل فيها منزلاً تركيّاً -مهما قصرت الزيارة- تشعرني الأسرة أنها تتبني بطريقة أو بأخرى، وهذا ما حدث لي في قرية يوروك قرب سافرانبولو؛ قرية ساحرة ومعرض حيّ للمنازل العثمانيّة الخشبيّة الرائعة الراجعة

إلى القرن الثامن عشر الميلاديّ، قضيت فترة بعد الظهر أكسر قشر البندق في الساحة الخارجيّة لأحد المنازل الضخمة بصحبة ربّ البيت، بعدها دُعينا للدخول وتناول الشاي، كان هذا المنزل العثمانيّ التقليديّ الضخم مصمّمًا ليسع أربع عوائل كبيرة، قد تغير طابعه ومال للحدّاث؛ إذ ظهرت فيه دورات مياه إفرنجيّة، وانتصبت الثّلاجة شامخة في منتصف ساحة الجلوس، كانت العجوز والدة ربّ البيت تراقب كلّ ما يحدث من موقعها في جلسة تجويف النافذة؛ إذ جلست هناك لتستمع بالنسيم البارد وتتأمل جمال الريف المحيط وتتابع الحوار الدائر بيننا؛ قبيل الغروب خرجت مع حفيدتها إلى المرعى القريب لتعيد الأبقار إلى المنزل حيث مبيتها في ساحة الدار فيما يُعرف باسم ”الحياة“، والحياة: عبارة عن ساحة ممّهدة في الطبقة الأرضيّة يدخلها الهواء بفضل التعريشات الخشبيّة، بدا لي بوصفي قادمة من الغرب الأوسط أنّ الاحتفاظ بالماشية وسِلّال البندق المقشور بالقرب من قلب المنزل والنوم بالأعلى أمر طبعيّ مألوف.

أمّا المنزل الثاني، فكان يتألّف من غرفة واحدة، لحارس دير الشيخ تورّسان خارج قيصري، شُيّد المنزل لجماعة هذا الشيخ العظيم التي عاشت في تلك المنطقة خلال القرن الثالث عشر، ودير الدرويش: منزل صوفيّ على قمة جبل رائع تأتيه الرياح من كل مكان، ويطلّ على سهل ترابيّ شاسع اجتاحه ذات يوم جنود تانكريد للوصول إلى الأرض المقدسة -فلسطين- خلال الحملة الصليبيّة الأولى عام ١٠٩٧م، ربّما امتزج جمال الريف، وهدوء العزلة، وعبق التاريخ، وذكرى الدرويش، لتضفي كلها على تلك البقعة جوًّا فريدًا من الروحانيّة.

عقب زيارة دير الدراويش دعاني الحارس لشرب الشاي في منزله، وبينما انهمكت زوجته في تحضير الشاي، تفحصت المنزل ذا الغرفة

الواحدة؛ كانت غرفة كبيرة جداً مزينة بسجادة فيروزية بلون البلاط السلجوقي، جدرانها مطلية بالجبص الأبيض تستند إليها وسائد كليم، لم تكن هناك أية صور على الجدران، أو مذياع أو تلفاز مدوّ، أو قطع أثاث متناثرة، لا شيء سوى موقد التدفئة المستدير القابع في وسط الغرفة.

ساد صمت مذهل حتى إنني كدت أسمع أصداء ذكرى صيحات الجنود الصليبيين القادمة من السهل بالأسفل في صوت الرياح التي تعصف بالأشجار، وصوت قعقة دروعهم في زقزقة الطيور، وصدى قرع الطبول في طنين النحل الخافت في الخلايا القريبة، لم أجد ثقباً واحداً في السجادة أو بقعة جافة تلطّخها أو تلطّخ الجدران، كان أهّم ما في الغرفة الأشخاص الجالسين فيها وأحاديثهم.

لا شكّ أنني أول أجنبيّ يطأ تلك الغرفة؛ فقد عُوِّملت بجلال ومهابة كالسلطان السلجوقي المنتصر كلش أرسلان؛ دخلت ربة المنزل وفي يدها صينية عليها الشاي والفاكهة الصابحة، ثمّ انحنت برقة ووقار لتضعها على الأرض أمامنا، وابتسمت لي في خجل قبل أن تصبّ الشاي بالرقّي الفطريّ نفسه لأيّ سيدة حسنة التربية، نشأت في قصر ثورسبي هول؛ وهكذا يمكنك أن تدركي يا سيدة ماري، كيف يصبح المنزل التركيّ من غرفة واحدة في مستوى جمال قصر من مئتين وخمس وسبعين غرفة أو في مستوى قصر "الشريف التركيّ"، وكيف تتجلى عظمة الأتراك الحقيقيّة في منازلهم.

صديقتكم

قدريّة براننج



منزل حارس زاوية الشيخ تورسان



وجبة عشاء على أريكة، في مطعم
”بانديلي“ بإسطنبول



منزل عثماني من الداخل في سافرانبولو



منزل خشبيّ قديم، في أوسكودار



وسيلة الاتصال قبل ظهور
هواتف الجيب



منزل فريد من نوعه في بشيكتاش



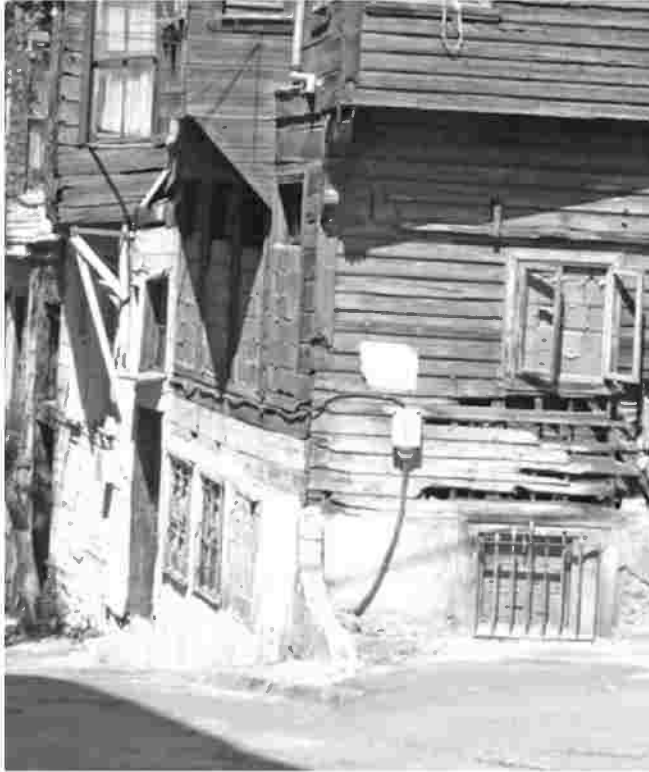
منزل عثمانيّ من الداخل
في سافرانبولو



حيّ السليمانية في إسطنبول



منزل فوق قبر سلجوقيّ في توقات



منازل خشبيّة قديمة في أوسكودار

الرسالة التاسعة عشرة

رؤية شاقبة

عزیزتی السیلة ماری،

یبدو أن الأحداث المثیرة المہمة تحدث دائماً في تركيا بغض النظر عن العصر، ولعلك لم تشعری كم أنت محظوظة لأنك عشت في تركيا في واحد من أشهر عصورها؛ فهذه الحقبة سُمیت باسم تلك الزهرة الزاهية ذات الأوراق الخنجرية النامية طبعياً في غابات تركيا، والرمز غير الرسمي للبلاد: إنها زهرة التیولیب!

یعدّ عهد لاله (التیولیب) إبان حكم السلطان أحمد الثالث أحد أهمّ عصور الإبداع الفنيّ على مدار تاریخ الإمبراطورية العثمانية؛ لعلّ هذا العصر لم یبلغ المستوى الرفیع لعصور أخرى انتشرت فيها المصانع الفنيّة العظيمة، رعاها بلاط سلاطين، مثل: سليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث، لكن لا داعي لأن ننسى أنّ قلة من العصور ذات التراث الفنيّ العالميّ یمكن موازنتها بتلك السنوات الذهبية؛ إذ تمثّلت أهميّة عصر السلطان أحمد في إشراقه أكثر من اكتشافاته الثقافية الجديدة؛ إذ كان ”عهد لاله“ عهد المرح.

عقب ما يربو عن أربعة قرون من الحرب والنصر والهزيمة، قرّر العثمانيون فجأة أن يستريحوا ويستمتعوا قليلاً بوقتهم، وهكذا كان عهد لاله في عصر السلطان أحمد الثالث وقت السلام والمتعة المفرطة والإبداع الأدبي؛ بدأ هذا العهد في شهر رحيلك عن تركيا يا سيدة ماري، عقب توقيع معاهدة بيساروفجة في يوليو عام ١٧١٨م، التي وضعت حدًا للحرب مع النمسا، وقد أمضى زوجك قبلُ عمرًا يتفاوض لإنهاءها لكن دون جدوى!

انتشرت زهرة التيوليب انتشارًا واسعًا أثناء فترة حكم السلطان البالغة اثني عشر عامًا، فصارت هذه الزهرة المقبّعة رمزًا لمتعة الفنون الإبداعية، وتحولت فكرة الحياة الرغيدة السعيدة إلى نوع من أنواع الفنون؛ فانتشرت احتفالات موسيقية، واستعراضات ضخمة في حلبات السباق، وحفلات راقصة، ونُزه خلوية، وحدائق ممتعة، ورِحلات في البوسفور السعيد؛ لم تُزرع زهور التيوليب في حدائق المدينة كلّها فحسب، بل نبضت بالحياة في أعمال التطريز والخزف والمنمنمات.

علاوة على انتشار زهور التيوليب في الحدائق والأعمال الفنية، فقد خلق "عهد لاله" وجهةً وأبعادًا جديدةً للمجتمع العثماني؛ فتوثقت علاقات تركيا بأوروبا خلال تلك الفترة، وازدهر العلم والاستكشافات الفكرية بعد إنشاء المكتبات، والبدء في الترجمة، ووصول أول آلة طباعة لطباعة الكتب باللغة التركية.

تمتع إبراهيم باشا -صهر السلطان أحمد الثالث ورئيس وزرائه- بنفوذ واسع في الإمبراطورية، إذ أرسل بعثة سفارية ثقافية إلى فرنسا لمراقبة أنظمة الحضارة والفن والتعليم والهندسة والتقنية؛ كان من نتائجها انتشار حركة تبادل تجاري واسع بين أوروبا والإمبراطورية العثمانية، شملت

الأزياء والخزف والساعات، بالإضافة إلى استيراد الأفكار الجديدة، كما يحدث الآن في تركيا.

اهتمَّ السلطان أحمد الثالث أيضًا بالبناء والتشييد؛ فأهدى المدينة فوّارة رائعة أمام مدخل قصر طوب قابي عام ١٧٢٨م؛ ومن المؤسف رحيلك قبل بنائها يا سيدة ماري، أتذكرك كلّما مررت من أمامها، وشيّد السلطان أيضًا فوّارة مذهلة على رصيف ميناء أوسكودار، واستغل إبراهيم باشا -المُعَيّن رئيسًا للوزراء في الشهر التالي لرحيلك- نفوذه لبناء فوّارتين في مسجدي شهزادا باشي وأورتاكوي؛ ولكن وأسفاه شَيّدت كلّها عقب رحيلك، غير أنك شهدت طفرة بناء القصور الخشبيّة على ضفاف البوسفور، بدأت في تلك الفترة وعُرفت باسم ”يالي“؛ كتبت في رسالة إلى القس كونتي: ”لا شيء أجمل من القناة، والأتراك على دراية تامة بمواطن جمالها؛ إذ يشيّدون استراحاتهم على ضفافها... فتتراصّ واحدة تلو الأخرى في مئات القصور الرائعة“، وفور رحيلك عن تركيا عام ١٧٢١م شيّد السلطان أحمد الثالث قصره الشهير ”سعد أباد“ -أي موطن السعادة- وسط مروج كاغيتهانه قريبًا من أيوب، وحُول مجرى النهر ليصبّ في المجاري الرخاميّة التي استعارتها البعثة الثقافيّة في فرنسا من رسوم قصر فرساي.

انعكست روح العصر في اللوحات الشهيرة لفنان البلاط ”لوني“، المصوّرة لاحتفالات ختان أبناء السلطان أحمد، وفي أشعار الشاعر نديم: ”دعونا نحتفل، دعونا نرقص ونلعب جميعًا، فقد بدأ عصر لاله!“ لكن وأسفاه جاءت ثورة شعبيّة لئنهي عصر عدم المبالاة والانغماس في اللذات والإفراط في الحفلات رغم ندرة الخبز والقوت، وأطيح بالسلطان أحمد الثالث، وانتهى ”عهد لاله“ على حين غرة عام ١٧٣٠م.

رغم أنك لم تشهدي ذروة أيام ”عهد لاله“، فلا بد أنك أدركت بالملاحظة المباشرة مقدار المتعة والمرح الذي تتضمنه حياة الأتراك فطرياً؛ فأنا أؤكد لك أن الأتراك لم ”يستمتعوا ويرقصوا ويلعبوا“ في أيامك فقط، بل إنهم يفعلون ذلك كل يوم وبالطرق الممكنة كلها؛ أعتقد أن الأتراك يعيشون لأربعة أشياء: الأسرة، الأصدقاء، الطعام، الطبيعة الجميلة، على اختلاف ترتيبها أو طريقة اجتماعها؛ أتقنوا مهارة الاستمتاع بوقتهم لأقصى درجة، بل كانت لديهم كلمات تعبر عن السعادة في المهرجانات الرسمية الشعبية؛ بالرغم من كل المشكلات والصعاب في حياتهم اليومية وافتانهم بالمآسي، فإنهم يتمكنون من الحفاظ على وجهة نظر تتسم بالسعادة الدائمة وارتفاع المعنويات، إنها ثقافة تنتصر فيها النظرة الإيجابية على المعاناة والسلبية.

من الصعب ألا تستمتعي بوقتك وسط الأتراك، سواء كنتم تحتسون الشاي أم تستمتعون بشواء شرائح اللحم أم تتضحكون أم تشمون الأزهار أم تنصتون إلى عازف ساز أم ترقصون في ملهى على شاطئ البحر أم تحضرون حفل زفاف قروي، كما أنك لا تكفين عن الابتسام والضحك مع شخص تركي، وتحظين بمتعة خالصة، وكما تقولين في رسالتك إلى القس كونتي:

”كما ترى يا سيدي، فإن هؤلاء الأشخاص ليسوا جهلاء كما نصورهم؛ فطبيعتهم مختلفة عن طبيعتنا، قد تكون أفضل؛ أكاد أعتقد أن رؤيتهم للحياة صحيحة؛ فبينما يقضون حياتهم بين الموسيقى، والحدائق، والطعام الفاخر، نعذب أنفسنا، ونشغل عقولنا بمخططات السياسة أو بدراسة علم لا يمكننا إتقانه، ولو أتقناه فلن نتمكن من إقناع الآخرين... يمكنك أن تسخر مني عندما أعلن أن الشخص لأن يكون سيئاً تركياً ثرياً بجهله كله خير له من أن يكون السيد إسحق نيوتن بعلمه كله“.

هذه الرؤية الصحيحة للحياة تبدأ من مهام الحياة اليومية الاعتيادية التي ترقى بطريقة ما لترقى درجة أعلى من الرتبة، سواء كانت لفئة كريمة أم كلمة أم إيماءة عذبة؛ فليس ثمة جانب من جوانب الحياة رتيب ممل، بل كل شيء قابل للتحسين.

تزخر الحياة في الشارع والأسواق بألوان من السعادة والمفاجآت في كل لحظة، ومن شأنها جميعاً أن تثير حواسك، مثل: العرض اللافت للمواد الغذائية في الأسواق؛ إذ يتحول تاجر الخضراوات العادي إلى متخصص في الفن المرئي يراعي أشكال بضاعته وألوانها أثناء ترتيبها، ويختتم العرض بحركة مذهلة؛ يقطع ثمرة ناضجة كثيرة العصارة ويضعها على قمة هرم الفاكهة المشيد بعناية؛ ويولي تجار الجواهر لبضاعتهم اهتماماً لا يقل عن هذا، فيعلقون صفوفاً متتالية من الأساور الذهبية مختلفة الدرجات، لتتألق في الأضواء اللامعة كأزهار دوار الشمس الراقصة تحت أشعة شمس الأناضول، يظهر الاهتمام نفسه في عرض السلع في المتاجر المؤقتة والصغيرة المقامة في الأسواق أو في الشوارع، بغض النظر عن مدى أهمية السلعة؛ فيصبح ترتيب المفكات أشبه بلوحة متفجرة بالأشكال والألوان للرسم جاكسون بولوك، وتتحول البضائع الغريبة المتنوعة إلى عروض جانبية كالمقدمة في مسرح الحيوانات، وتشمل هذه البضائع القبعات، والكُفوف (الفُفَازات)، والمراوح، ومقاسر الخضراوات، وملابس الشعار، والقَدَاحات، والبطاقات البريدية القديمة بصور الزهور، والأقفال، وطلاء الأظافر، والعطور غير الأصلية، والمقالي زهرية اللون، وأباريق الشاي، وقطع الصابون الصفراء والزهراء، والأحذية المقلدة لمشاهير المصممين، والمُحافظ، والمِقَشَات ومنافض الأتربة، وكلها مرتبة بدقة وعناية في استعراض صاحب للألوان، ووسط هذا كله لا يسعنا أن ننسى الصبيان الصغار والمُعَدِّمين بائعي عبوات

المناديل والجوارب واللفائف المفردة بمهارة وإتقان، فهم أفضل من بائع في متجر باريسيّ متعدد الأقسام.

تتجسّد الأفعال الخارقة في تلك اللففات الرقيقة الصادرة عن ماسح الأحذية؛ إذ يُخرج بخفّة كساحر متمرّس قطعة نسيج بيضاء، ويضعها على جوربك حتى لا يلطّخه الملمّع؛ وتتجلّى أيضًا في مجموعة المناشف الملونة المنشورة خارج متاجر الحلاقين، ترفرف في الهواء كالأعلام المرفرفة على السفن، وتتجلّى في عناية الأتراك بتغليف السلع بالورق أو الخيط مهما كانت زهيدة السعر، بدءًا من المنتجات النسائية وصولاً إلى حفاظات الأطفال، لضمان قدر من الخصوصية في مواجهة أعين المتطفلين في الشارع، وتتجسّد في عطر الليمون العذب يُرشّ على يديك عندما تدخلين مكتبًا أو تغادرين مطعمًا.

في عالم الأعمال يتصرف الأتراك بدمائة؛ فتصبح متعة الشراء العاديّة مغامرة مثيرة، ووسيلة للتعرف إلى أصدقاء جدد وفرصة للتفاعل مع الآخرين والتعلم منهم، عندما تبدأ مفاوضات الشراء تظهر أكواب الشاي، معلنةً بدء علاقة جديدة إلى جانب التجارة.

الأتراك لا يوصدون المتاجر، وإذا أراد صاحب المتجر أن يخرج لشراء الطعام، يضع كرسيًا في المدخل إشارة إلى خروجه، ولا يجروّ أحد على عبور العتبة حتى يُزاح الكرسيّ، ورغم أنّ الموسيقى صاخبة في كلّ مكان من المتاجر، وقد تكون مزعجة أحيانًا، فإنّها وسيلة للحياة والتفاؤل في الشارع.

لا تختلف الحياة في الفندق كثيرًا، فلا يضيع أحد فرصة لتقديم المساعدة أو لإبداء الاهتمام الشديد، ومن أمثلة اللمسات الرقيقة المنتشرة في كلّ مكان: الانحناء لك كما لو كنت سفيرًا في الأمم المتّحدة،

وفتح الأبواب لك بابتسامة عريضة وغمزة عين، وشرائح الجزر أعلى شرائح جبن الفيتا كأوجه صغيرة باسمه تقدم لك تحية الصباح، والأزهار البلاستيكية المثبتة في طية الصدر لبرنس الحمام تشعر أنك أنها مهداة من معجب مجهول.

من مظاهر الذوق العالي في شوارع تركيا فن إبراز المشاهد؛ إذ يحرص الأتراك على اختيار مواقع منازلهم ومساجدهم وآثارهم بدقة شديدة، ويتمتعون بمهارة فطرية في اختيار أفضل الأماكن لوضع آثارهم من منظور استراتيجي درامي؛ ففي مقصورة مسجدني مراد الأول وبايزيد "الصاعقة" أعلى جبال بورصة تعزف الريح المداعبة للأشجار أنشودة خالدة تحكي النهاية المأساوية لهذين السلطانين، ولا يمكننا نسيان المنازل العثمانية المترصة أعلى التلّ في سافرانبولو التي تشبه قطع الشطرنج المصنوفة بتناسب لتحافظ على منظر جيرانها.

أعتقد أنّ تناول الطعام في الخارج من أمتع مباحج الحياة لدى الأتراك؛ فقد يأكلون في ساحة مطعم فاخر على السطح، أو في حديقة شاي في المتنزه وسط المدينة، أو في نزهة عارضة إلى جوار فوّارة أو جدول منساب، أو يتناولون وجبة عشاء في الهواء الطلق في مدخل منزل، أو يأكلون ثمرة خو

خ في ظلّ دوحة على جانب الطريق؛ إذ يعرفون أنّ الهواء النقيّ من أفضل المقبّلات.

ترعرعت على حبّ تناول الطعام في الخارج أيضًا؛ إذ اعتاد والدي أن ينظّم نزهًا أثناء تساقط الثلوج، ووجبات إفطار في المتنزهات، ورحلات قصيرة إلى حقول الطماطم المثمرة مع أخذ الملاحّة، واحتفالات عائليّة في غابات الوديان؛ لهذا يرتبط تناول الطعام في الخارج في مخيلتي بالتلقائيّة والسعادة والأخوة، وعندما اكتشفت هذا الشعب المستمتع بتناول الطعام في الهواء الطلق، شعرت على الفور أنّي في وطني.

يعشق الأتراك النّزه الصّيفيّة في البساتين، والحدائق، والمتنزهات الوطنيّة، والمروج المرتفعة، وفي ظلال الأشجار، وفي أية بقعة تجسّد جمال الطبيعة، وقد تكون وجباتهم خفيفة وسريعة كالفواكه الصّباحية أو العسل والخبز أو وجبات متقنة من اللحم المشويّ، ومن عاداتهم الممتعة تناول الطعام صابحًا، وهي عادة منتشرة في الكثير من المطاعم والاستراحات على جانب الطريق، إذ يتم إحضار شوايّة قابلة للحمل إلى مائدتك لتكون مسؤولاً عن شيء اللحم أو السمك وتناوله، ويقدر حبّ الأتراك لتناول الطعام في الخارج، فإنهم يكرهون المقاهي على الطُّرُق؛ لأنّها تترك شوارع المدينة متسخة جدًّا.

تحدّثت يا سيّدة ماري، في رسالة من أدرنة إلى أليكساندر بوب، عن حبّ الأتراك للحدائق المليئة بأشجار السرو الباسقة تعلوها أعشاش طيور القمّاريّ:

”الأرض كلّها مغطّاة بالحدائق، وبمحاذاة ضفاف الأنهار
تصطفّ أشجار الفاكهة يجلس تحتها الأتراك كلّ مساء للاستمتاع
بوقتهم، ولا يتمشون تحتها؛ فهذا ليس من وسائل الأتراك

للاستمتاع، بل يختارون بقعة خضراء وارفة الظلال، وتبسط فيها سجادة ليجلس الجميع عليها يحتسون القهوة...“.

وليس ثمة مكان أفضل للاستمتاع بما أشرت إليه من ”موسيقى، وحداثق، وطعام فاخر من المروج العالية، أي: مرتفعات الجبال الصيفية، يعدّها الأتراك مزارات وطنية حقيقية؛ فالمراعي المرتفعة جنة على الأرض في العقل التركيّ الفطريّ؛ فهو يميل لتصميم السجاجيد لتمائل ألوانها الكثيرة أزهار المروج المزركشة.

عادة نقل المواشي من مرعى إلى آخر تجري في دماء السلالة التركمانية التي سكنت آسيا الوسطى وجاءت إلى الأناضول بداية من القرن الحادي عشر، واعتمد بقاؤها على السعي الدائم للعثور على مراعى جديدة للماعز والغنم حسب الموسم، صحيح أنّ الغالبية العظمى من الأتراك لم تعد تعيش وفقاً لهذا الأسلوب البدائيّ، لكنّه ما زال يسري في دمائها وأرواحها؛ فمع بداية فصل الربيع ترنو قلوب الأتراك إلى جمال تلك المراعي الجبلية البهيجة، ويتوجهون إلى التلال للاسترخاء والاستمتاع بالاندماج في الطبيعة؛ لهذا تصبح الجداول المتدفقة، والضباب الأبيض في فترة ما بعد الظهيرة، والغنم، أهمّ أبطال القصص الشعبية الغنائية؛ يركض الأطفال بحرية على العشب ويتسلقون الأشجار والصخور، وتجتمع العوائل مساء في الأكواخ الصغيرة ملاجئ الصيف، ولا تضاهي نضارة أطعمتهم سوى نقاء الهواء في تلك الأيام الدافئة والليالي الباردة؛ فيأكلون الزبد، والجبن، والحليب، والخبز، واللبن الخثير؛ سواء كانت المروج العالية في منطقة البحر الأسود أم في جبال طوروس أم كاتشكار أم أسفل جبل أرجيز، المهمّ أن يشعر المرء بالحرية، وأن يشارك أسرته الطعام، وأن يحيا في تناغم مع الطبيعة والفصول المختلفة، وأن يستمتع

بحسّ المغامرة، وفوق كلّ شيء أن يتحرّر من قيود الزمن؛ ورغم أنّك لم تنعمي بزيارة المروج العالية فقد ثملت من حلاوة المناخ التركي والطبيعة:

”الجورائع جدًّا؛ أجلس الآن -في الرابع من يناير/كانون الثاني- والنوافذ مفتوحة، أستمتع بأشعة الشمس الدافئة، وغرفتي مزينة بأزهار القرنفل، والورد، والنرجس المقتطف من حديقتي“.

سيدة ماري، كم سيكون من الرائع الجلوس معك على سجادة في حديقة قُبالة الماء في أحد مئات القصور الرائعة أو في المروج العالية، للانخراط في محادثة لبقّة مع شخص نحترم، ولإلقاء أبيات علّمك إياها معلّمك أحمد، ولتناول بعض ثمار الخوخ الصابحة، وشرب الشاي معًا؛ يمكننا أن نضحك ونحظى بسعادة مفعمة بالحويّة كما يفعل الأتراك في كلّ لحظة من حياتهم، يمكننا أن نترك سير إسحاق نيوتن ونتجنّب قوانين الحركة قليلًا كي نحتفل، ونرقص، ونلعب كالندماء، يمكننا أن نصبح صديقتين بمفهوم الصداقة العذب الرقيق الرائق الذي عشناه في تلك اللحظات في تركيا؛ هذا هو الرقيّ الحقيقيّ، والرؤية الثاقبة للحياة.

صديقتكم

قدريّة براننج



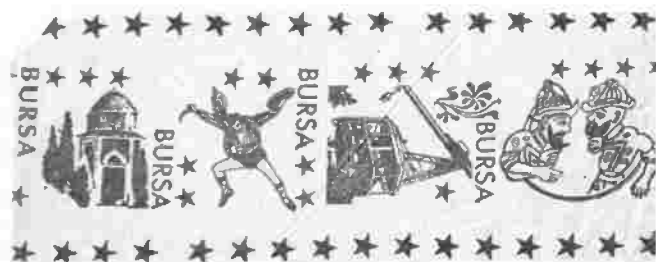
مجموعة مقاعد لتناول العشاء تحت الأشجار في بيشهير



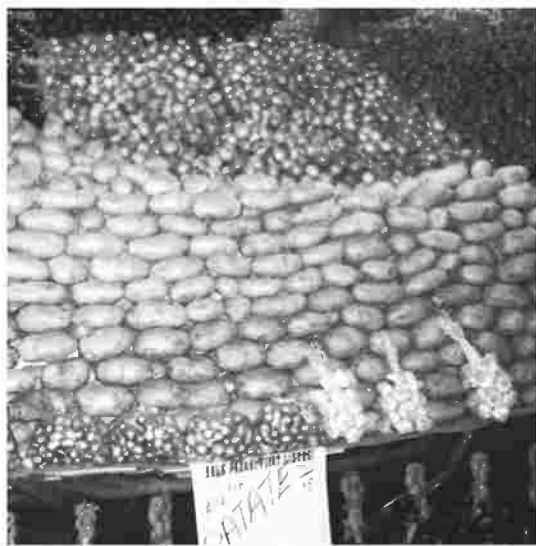
(اخدم نفسك بنفسك) في فتحية



مطافئ الحريق مستعدة في أدرنة



ورق التغليف في إحدى الصيدليات في بورصة



بطاطس في سوق بشيكتاش



بادنجان معروض للبيع، سوق الخاتونية في قونيا



لوحة حبة لثمار الطماطم، والفلفل، وزجاجات المياه المعدنية في تاتفان



متعة القطة "غفوة في السوق"



أدوات معروضة للبيع في إسطنبول



أدوات معروضة للبيع في إسطنبول



بضائع ملوثة في كاديرجا



في أفشين



قرع صيفي للبيع، سوق الخاتونية
في قونيا



مشهد من الشارع في قونيا



متعة القطّة، سوق الصحفيين في إسطنبول



فوّارة السلطان أحمد الثالث عام ١٧٢٨م

الرسالة العشرون

كنت جائعة

عزيزتي السيِّدة ماري،

لا أختلف معك إلا في مسألة واحدة، وهي تقديرك للثقافة التركية؛ ففي الرسالة التي تتحدّثين فيها عن عشائك مع زوجة رئيس الوزراء، تقولين منزعجة:

”لقد ضيّقتني بكلّ لطف وكياسة، ثمّ حان موعد تناول العشاء، فقدّمت أطباق كثيرة واحدًا تلو الآخر... وأنا خبيرة جيّدة في أطعمتهم؛ إذ أقمت ثلاثة أسابيع في منزل سيّد تركيّ في بلغراد، اعتاد أن يقدّم لنا وجبات عشاء رائعة من إعداد طهاته؛ أمتعتني هذه الوجبات جدًّا خلال الأسبوع الأوّل، لكنني بدأت أملّ منها وتمنيت أن يُعدّ طاهينا طبقًا أو طبقين من أطعمتنا...“.

هَلّا تمنحيني هذه الأطباق الكثيرة يا سيِّدة ماري، إذا لم ترغبني في تناولها! أختلف عنك في هذا؛ فأنا لا أملّ أبدًا أصناف الأطعمة المتنوّعة المتوفّرة في تركيا؛ أقرّ أنّي سمعت آخرين يبدون ملاحظتك نفسها

عن الرتبة في الأطعمة؛ في زيارة لي إلى أنطاليا التقيت سيّدة راقية من أتلانّا، كانت حسناء من الجنوب تشعّ جمالاً؛ تحدّثت بلهجة الجنوب الثقيلة ثقل الشاي المحلي، وقالت بحسرة: ”طماطم، طماطم، طماطم! لقد سئمت منها! يتناولونها على الإفطار، والغداء، والعشاء، والطعام المعدّ هنا كلّ فيه طماطم! أتوق للعودة إلى الوطن؛ لأتناول وجبة رائعة من اللحم بالمرق، وجريش القمح!“ لم أحاول إقناعها برأيي؛ إذ أظنّ بصدق أنّ النعيم هو المكان الذي يستطيع فيه المرء تناول الطماطم من الصباح إلى المساء؛ لذا لم أعلّق على قولها.

ورغم أنّ الأطعمة التركيّة لا تخلو من الطماطم، إلا أنّي أجد المطبخ التركيّ متنوّعاً، وهذه من أمتع المزايا في تركيا؛ لا أحاول في رسالتي هذه تغيير رأيك في الطعام التركيّ، ولا أريد أن أسهب في الحديث بلا توقف عن ملذّات المائدة التركيّة، أو أن أصف مذاق كلّ طبق على حدة؛ فسأترك هذه المهمّة للكُتّاب هُواة الحديث عن الطعام؛ إنّما أريد أن أطلعك على بعض اللحظات السعيدة التي مررت بها وأنا أستمتع بأطباق أعجبتني خلال رحلاتي.

يحمل الطعام التركيّ كثيراً من صفات الأتراك أنفسهم؛ فهو صريح، سهل، مباشر، شهيّ، غنيّ، مثلما تسهل قراءة الوجوه التركيّة، ينطبق الشيء نفسه على طعامهم؛ فليس فيه شيء خفيّ أو سريّ، ولا يحتاج إلى خبرة فائقة أو صلصات كثيفة معقّدة، بل هو طعام واضح، مباشر، تعرفين تماماً طريقة تحضيره ومكوّناته، غير أنّ وضوحه لا يعني بالضرورة أنّه مملّ؛ فبعض هذه الأطباق من ألذّ ما تذوّقت في حياتي، وأنا أعدّ نفسي ذوّاقه في أشهر المطابخ العالميّة، ألا وهو المطبخ الفرنسيّ؛ فيمكنني عقد هذه الموازنات.

لا بدّ أن تكوني من محبّي لحم الضأن، بل من المكثّرين منه، لتستمتعي بالمطبخ التركيّ؛ فهو شائع هنا، لأنّ لحم الخنزير محرّم، ولحم البقر غير منتشر، أمّا إن كنت غير ذلك، فستتظرك في كلّ مكان وجبات من دجاج المزارع الغضّ، والسّمك الصابح من أحد البحار الثلاثة المحيطة بتركيا: البحر الأسود، وبحر إيجه، والبحر الأبيض المتوسط.

رغم أنّ تركيا بلد يكثر فيه تناول اللحم، إلّا أنّه جنّة للنباتيين، وهنا تكمن أهمّ مزايا المائدة التركيّة؛ فلا أعرف بلداً آخر يراعي تلك الفئة؛ لن تجدي مثيلاً لأنواع الفاكهة والخضر المتوفّرة في تركيا في أيّ مكان آخر، ولو فرنسا؛ إنّ طريقة تحمير الخضراوات في زيت الزيتون، وتقديمها طبقاً مُشهياً يشعر النباتيّ أنّه في الجنّة؛ يُقال على سبيل الدعابة: إنّ الرجل التركيّ قد يطلق زوجته إذا أعدت له الباذنجان بالطريقة نفسها مرّتين خلال شهر واحد؛ إشارةً إلى غزارة الطرق والأفكار الخاصّة بتحضير الخضراوات في المطبخ التركيّ!

أجد كثيراً ممّا أشتهيه هنا؛ فأنا شخصياً أستمتع بالأطعمة السهلة غير المعقّدة، فطبق متواضع من أرز بالحِمص، مع شيء من اللبن الخثير الدّسم بنكهة محبّبة في أكثر الأماكن تواضعاً مثل مواقف الشاحنات، من أفضل الأطباق لديّ في العالم، أمّا الرائب -شراب اللبن الخثير المفضّل لديهم جميعاً- فتناوله مع أغلب الوجبات يذكّرني بإبريق لبن خثير مُخَوّض، شربته وأنا طفلة على مائدة عشائنا في الغرب الأوسط، ما هو طعام الثاني المفضّل في تركيا؟ إنّها ثمرة خوخ مثاليّة مزجّة كروية، مثل: كرة البيسبول؛ لن تعرفي مذاق الخوخ الطبعيّ الحقيقيّ حتى تتذوّقي ثمرة خوخ في تركيا؛ فهي ناضجة كلّ النضج، مكنتزة، تداعب حلاوتها لسانك، وتتدفّق عصارتها؛ لتغمر مسامّ التذوق كلّها في فيك.

علاوة على الطعام بالغ السهولة، يستطيع المرء أن يجد لمحات من الأطباق المعقّدة، كانت تُعدّ في مطابخ قصر طوب قابي الراقية رقيّ السلطان المعدّة له؛ يوثّق مؤرّخو الأطعمة المرموقون هذه الأطباق، وطرق إعدادها كي لا يغمرها النسيان، ولا شكّ أنّ الطرق الأقلّ تعقيداً لإعداد هذه الأطباق المتسرّبة إلى المطبخ التركيّ الحاليّ تمنح مستوى المتعة نفسه لعشرة ملايين أسرة في جمهوريّة تركيا، مثلما منحتها لكلّ بلاط سلطانيّ خلال إقامتك في تركيا العثمانيّة.

كلّ شيء صابح في هذا البلد، ثمرةً كان أم طيّحاً؛ إذ يمكنك أن تشعري بدفء الشجر في ثمار المشمش، وبقوالب طوب المخبز في قشرة رغيف الخبز؛ وطعام الأتراك متنوّع متنوّع الريف وسكّانه، يضمّ مجموعة واسعة من الأطباق المحليّة المنتشرة المعدّة بزهو، وهو طعام ذو نكهة قويّة، بدءاً من العسل حادّ الطعم، والجبن بالشوم نفاذ الرائحة، والبسِطِرْمَة قويّة النكهة، وصولاً إلى الرائب الحامض اللاذع.

أخبرتكَ من قبل عن الطيّبات على مائدة الإفطار التركيّ، لكنّ الأتراك يتألّقون غالباً في موائد العشاء، وأقوى شاهد على ذلك مقبلاّتهم التقليديّة، وكثير من الأطباق الصغيرة في بداية الوجبات؛ فهذه الأطباق بمنزلة صورة فوتوغرافية صغيرة للبلاد بأسرها، أطعمة شهية متنوّعة تغريك دوماً لتناول المزيد.

يعجبني اشتراك الأتراك في تناول مقبلاّتهم؛ إذ يأكلون من الطبق نفسه، يُوضع كثير من أطباق المقبلاّات على المائدة، قد تصل أحياناً إلى اثني عشر صنفاً، يتشاركون فيها جميعها؛ الأمر الذي يغرس حسّاً فطريّاً تربويّاً بأهميّة روح الجماعة.

الأتراك يحبّون الطعام، ويأكلون بشهية كبيرة، ويضعون كثيرًا من الملح في طعامهم؛ بعضهم قد يضع تلقائيًا عشر رشّات من الملاحّة لأيّ طبق أمامه دون تذوّق أو تردّد، ويتمتّع الأتراك بحماسة وطنية، لا تتبدّى لدى رؤية علّمهم الخفّاق ذي الهلال فحسب، بل تظهر أيضًا على المائدة؛ كان لي صديق تركيّ لم يسافر خارج البلاد قطّ، وكنت مقيمة في فرنسا وقتئذٍ، فأمضيت وقتًا طويلًا أصفّ له جمال فرنسا ومباهجها، وأغلب هذه المباهج يتجلّى طبعًا في المائدة الفرنسيّة، وكنت أحلّم بالوجبة التي سأعدها له إذا حضر لزيارتي في باريس، وفي أحد الأيام بدأت أصفّ له مدى سعادتي عندما سأطهو له أوّل وجباته الفرنسيّة، ثمّ مضيت أتحدّث عن الأصناف في قائمة الطعام: ”سأعدّ لك صنفًا خاصًا... سنبدأ بسوفليّه بالجبن، تليه شرائح السلمون مع السبانخ، والطبق الرئيس شرائح الدجاج مع الصلصة، تليها سلطة الخسّ الصابح، وطبق الجبن المشكّل، والحلو شوكلاتة، هذه هي القائمة!“ حقًا كاد لعابي يسيل لمجرّد التفكير في القائمة وسعادتي وأنا أعدّها له، وهي من أهمّ علامات الحبّ التي أعرفها؛ بدت على وجهه نظرة انزعاج، وصاح: ”ديك من هذا! لا أريد هذه الأطعمة! أريد أطعمة تركيّة فقط! فهي الأفضل، والأطباق الأخرى كلّها لا ترقى إلى مستواها!“؛ تعلمت من هذا الدرس المؤلم أنّ بعض الأتراك لا يحدوهم الفضول للتعرف إلى أطعمة الثقافات الأخرى، ويعدّون مائدتهم مقدّسة؛ فرجل لا يرغب في أن أطهو له وجبة فرنسيّة، لم يكن بالطبع جديرًا بأن أحرص على حبّه؛ فيبدو أنّ الدجاج بالكريمة لا يمكنه التفوّق على الكباب؛ فانتهت قصّة حبّ بسبب الطعام التركيّ.

يُقال: إنّ أعظم موارد تركيا الطبيعيّة هي قدرتها على كفاية شعبها، وعدم حاجتها للاعتماد على أية أغذية مستوردة، وهذا الاحتياطيّ قد يتضح

في نهاية المطاف أنه أهم من البتروكيماويات أو الفحم، فضلاً عن ذلك، فالطعام يمنح الأتراك فرصة جيّدة للزهو بما يشتهرون به من حسن الضيافة.

وصفت -يا سيّدة ماري- طقوس العشاء خلال زيارتك للسيّدة حفصة: "قدّمت لي وجبة عشاء من خمسين طبقاً من اللحوم، وُضعت على الطاولة واحداً تلو الآخر تبعاً لتقاليدهم..."؛ ولا تزال هذه الأطباق تقدّم حتى اليوم واحداً تلو الآخر، لا في شكل حصص مثلما يحدث في أوربا، بل من خلال طقوس طويلة تمهيداً للصنف التالي.

حينما نزلت ضيفة على عائلة حدّثتك عنها في رسالة سابقة، أعتقد أنني عوملت معاملة لا تقل فخامة عمّا تلقّيته من معاملة في منزل السيّدة حفصة؛ ففي جوّ الحديقة المنعش تحت التعريشة قدّم لي "فطائر اللحم" المعدّة منزلياً، مع الخبز الصباح، تلتها سلطة شرائح الطماطم الصابحة والقّاء، بالإضافة إلى فاصوليا بيضاء بالصلصة، ثم ظهر الطبق الرئيس من شرائح لحم الضأن الدقيقة، في سَمَكة الورق، مشوية مع الفلفل الأخضر إلى جانب الأرز، مع مشروب صودا البرتقال، تلا ذلك طبق الحلو من كعك الشوكولاتة المرشوش بالبندق والفسق الجريش، لكنّ الوجبة لم تنتهِ بعد؛ فقد رُفِعت المائدة وأعدّ الشاي؛ وإذا بإناء ضخم لإعداد الشاي بالإضافة إلى عشرة أطباق فيها مختلف أنواع المكسّرات، والفواكه المجفّفة، والمشمش، ثم زارنا بعض الجيران، وسرعان ما ظهرت صوانٍ ضخمة من الفواكه الصابحة، وقدّم لكلّ ضيف طبق فيه قطع شَمَام، وبِطِيخ، وعنب، وكُمثري، وتفاحة! ربّما هذا ليس كالخمسين طبقاً التي قدمتها لك السيّدة حفصة، لكنني أوكد لك أن حسن الضيافة لم ينقص عمّا وصفته.

كثيراً ما تكون الخدمة في المطاعم بالغة الرقي، تتضمّن استعراضاً مبهرًا لخفّة يد النادل خلال تبديل الأطباق وأدوات المائدة مع تتابع

تقديم الأصناف، وإذا نهضت لحاجة أثناء الوجبة، فستعودين دائماً لتجدي منديلك مطوياً، والكراسي منسّقة، والمائدة خالية من فوات الطعام، وكأسك مترعة.

لدى الأتراك عادة تتطلّب الاعتياد عليها، لكنّها نابعة من الاهتمام الأصيل؛ إذ لا يليق في الثقافة التركيّة ترك الطبق فارغاً أمام الضيف؛ لذا سوف تلاحظين كثيراً رفع طبقك من أمامك وأنت على وشك تناول اللقمة الأخيرة، وشوكتك أو ملعقتك في الهواء، وكثيراً ما تقدّم لك الأطباق مرتّبة على غير ما طلبت، مع استبدال بعض الأطباق، وتقديم أطباق لم تطلبها، كما حدث معي من قبل؛ فالنادل يعرف دوماً الأفضل لك بغض النظر عما طلبت! عندما يفتح النادل زجاجة مشروبات غازيّة، يعيد السدادة على الفور إلى مكانها، أو يسد عنق الزجاجة بمنديل مائدة ملفوف على شكل مروحة رائعة، ومهما حاولت إقناعهم، سيؤكّدون لك أن ترك الزجاجة مفتوحة لا يليق.

تزعم فرنسا أنّ لديها ستّ مئة نوع من الجبن، وهذا صحيح إلى حدّ ما، لكنّ الأتراك أيضاً يمكنهم أن يفتخروا بما لديهم من تشكيلة واسعة من أنواع الكفتة والكباب؛ فهم مهرة بالفطرة في الشّي بالسفايد، والسّلقي، والشّي على الفحم؛ فثمة ما يزيد على مئتين وواحد وتسعين نوعاً مختلفاً مذهلاً من أطباق اللحوم، مثل: اللحوم المشوية، أو المسلوقة، أو المقلية، أو المطهية على مهل أو المحمّرة أو النيئة، ويحمل كثير من أنواع الكباب والكفتة اسم المنطقة التي يعدّها فيها، وهذا دليل آخر على تفاخر الأتراك بالأماكن: (إزمير، أكتشابات، إيناجول، تكيرداغ، هاربوت، توقات، أضنة، بّيئي)، بينما تشير أسماء لأنواع أخرى إلى طريقة طهوها، أو مخترعها (الصلصة، كُبيبة مشوية على الفحم، مدوّرة "لحم الشاورمة"، ساطور

من تراقيا، كباب إسكندر، بيتي، تشاغ من إضروم، فرن التندور، كباب علي نازك من وان)، وتحمل أسماء أخرى بعض المكوّنات الخاصّة (سردين، أنشوفة)، أو تحمل أسماء تتضمّن تشبيهات، مثل: ”الصغيرة“، و”الأفخاذ المكتنزة“، و”رؤوس الطيور“، وفي الختام لا بدّ أن أستوضح مسألة لغويّة تتعلّق بالطعام؛ إذا أراد أحدهم أن يقول: ”أنا جائع“، فلماذا تُصاغ الجملة دائماً بالزمن الماضي؟

كلّما شعرت بالقليل من التعب، أو الحزن، أو الكآبة، أو اعتلال المزاج في موطني بمدينة نيويورك، أدركت تماماً ما يجب عليّ فعله؛ فأحضرت لحم الحمل، وباذنجان، وبصلة، وبعض حبّات الطماطم، ثمّ أشرعت في العمل؛ فآثار الكباب العلاجيّة مذهلة؛ حينما أفسّر ثمرة الباذنجان الأرجوانية، أفكر في الشمس الحارّة فوق سهول الأناضول تلفح قشرتها، وحينما أقلي قطع اللحم وشرائح البصل في الزُبد حتى تنبعث منها رائحة شهية، ترتفع معنوياتي مع تصاعد البخار، وهكذا يا سيدة ماري، حينما أطهو وجبة تركيّة، أفكر في وفرة الأطعمة المميّزة للمائدة التركيّة، لا سيّما وفرة الحبّ المنتشر حولها؛ لم أشعر، ولا أشعر، ولن أشعر أبداً بالجوع في تركيا.

صديقتكم

قدريّة براننج



مخبز في كارس



فواكه مجففة، سوق ساماتيا في أنقرة



قالب نقش الخبز في إسطنبول



بطيخ ديار بكر



الخضراوات الشتوية في سوق أورتاكوي

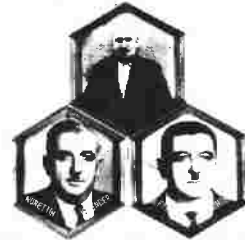


وجبة الخبز باللحم المشهورة بها قونيا



استراحة لتناول الإفطار في نيكوي

KEBAPÇI
İSKENDER
Kuruluş Tarihi: 1867
Kurucumuz



Ünlü Cad. No: 7 Bursa-Türkiye
Tel: (24) 21 46 15 - 22 37 79

أهم مطعم يعدّ كباب إسكندر المشهورة
به بورصة



الخضراوات الشتوية في سوق أورتاكوي



فواكه محفوظة في مطعم الحاج عبد الله في إسطنبول



أضلاع لحم الحمل في قرية كافاك



سوق السمك في أنقرة



تاجر المنتجات الجافة في تشوروم



تجار البطيخ والشمّام في سوق بشيكتاش



سوق منتجات الملكة خاتون في قونيا



صالون حلاقة باتشا في أفشين

BOĞAZIÇI
Döner, Kebap ve Pide Salonu

Tel : 213 60 90
Yeni Çarşı Şadırvan Karşısı No : 29 **NİĞDE**



بائع معجنات متجول في أمين أنو



Meydanat / Salt drinks		
Çorba / Soup		
Iskender kebab / Foods with meat and grill	110	
Saklı yemekleri / Foods with vegetables		
Doğayollar / Foods with olive oil	120	
Meydanat / Foods		
Meydanat / Appetizers	24	
Special Meydanat / Special appetizers	100	
Special eats	60	
Yemek Mekânı / Eat TOTAL		
İÇKİLER — DRINKS		
70 / 80 / 90 / 100 / 110 / 120 / 130 / 140 / 150 / 160 / 170 / 180 / 190 / 200 / 210 / 220 / 230 / 240 / 250 / 260 / 270 / 280 / 290 / 300 / 310 / 320 / 330 / 340 / 350 / 360 / 370 / 380 / 390 / 400 / 410 / 420 / 430 / 440 / 450 / 460 / 470 / 480 / 490 / 500 / 510 / 520 / 530 / 540 / 550 / 560 / 570 / 580 / 590 / 600 / 610 / 620 / 630 / 640 / 650 / 660 / 670 / 680 / 690 / 700 / 710 / 720 / 730 / 740 / 750 / 760 / 770 / 780 / 790 / 800 / 810 / 820 / 830 / 840 / 850 / 860 / 870 / 880 / 890 / 900 / 910 / 920 / 930 / 940 / 950 / 960 / 970 / 980 / 990 / 1000	18	
İÇKİ YERİNDİ / DRINK TOTAL		
KGW Dahi YERİNDİ — TOTAL		
İSKONTO — DISCOUNT (%)		
Yalnız bu Yaktığı Ödöyöüz PAY ONLY THIS TOTAL		
ÖARSON MAKBUZU — WAITERS RECEIPT		

K. Mat. GB. 38078
 B. : 1980 İf Kodu : 06

Anlaşma Ta. : 25.12.1988

فاتورة من نادي مدينة أماسيا

الرسالة الحادية والعشرون

البصمة التركيّة

عزيرتي السيّدة ماري،

تؤكدين دائماً في رسائلك على ذوق الأتراك بالغ الرقيّ، على الرغم من اختلافه عن ذوقنا؛ إنّه ذوق يتغلغل في جوانب حياتهم كلّها، ويتمحور حول تلك العناصر الأربعة الشهيرة: الأسرة، الأصدقاء، الطعام، البيّة الجميلة، ويؤثّر فينا جميعاً بلا استثناء، وأنت قطعاً محقّة في قولك: ”هؤلاء الأشخاص ليسوا جهلاء كما نصوّرهم؛ فطبيعتهم مختلفة عن طبيعتنا...“ لكنّ ثمة أمراً واحداً صغيراً في الثقافة التركيّة يبدو أنّه تسلّل من هذا الرقيّ الفائق، أطلق عليه اسم ”البصمة التركيّة“.

ثمة ”بصمة“ أخرى شهيرة أعرفها جيداً، تسمّى ”البصمة الفرنسيّة“؛ تشير إلى طابع الأناقة والتميز اللذين يضيفهما الشعب الفرنسيّ على منتجاته وإبداعاته كلّها من طراز الملابس إلى المطبخ، وأصبحت تعني أيضاً الأسلوب المتميّز الرفيع في لعب الرجبى، لكنّ مفهوم ”البصمة“ في تركيا شيء مختلف تماماً؛ فالبصمة التركيّة في رأيي: طريقة تركيّة خاصّة لإضفاء نوع من القصور الطفيف -عن قصد أو غير

قصد- على ما يفعله الأتراك كلّهُ؛ فدائمًا ما تجددين شيئًا ناقصًا، أو يعوزه التناسب، أو خاطئًا تمامًا أحيانًا، وليس هذا بالأمر الجلل، فكلّ شيء يسير على ما يرام، لكنّ هناك دائمًا خللاً طفيفًا، أو نقصًا، أو نقطة ضعف، أو غرابة، أو التباسًا؛ الأمر أشبه ببيت شعر مكسور أو كلمة غريبة مفاجئة تلفت نظرك، وتجعلك تفكرين على نحو مختلف فيما يحاول الشاعر أن يقوله؛ يخبرني أغلب الأتراك أنّ هذا الأمر ليس متعمّدًا، لكنّه قد يكون كذلك بدرجة ما؛ فالأتراك يصابون بالانزعاج حينما يبدو كلّ شيء شديد المثاليّة، والحياة ليست مثاليّة، وكذلك ينبغي أن يكون ما حولنا كلّهُ؛ الكمال لله وحده؛ فيجب ألاّ نغفل عن ذلك، ومن ثمّ علينا أن نظلّ متواضعين، وألاّ يتتابنا الكبر؛ هكذا أفهم طريقة عمل البصمة التركيّة؛ فكانها صلاة سهلة لتمجيد عظمة الخالق.

نشأت في ثقافة تسعى جاهدة لتحرّي المثاليّة فيما تفعله كلّهُ، سواءً في الرعاية الطبيّة، أو طراز الملابس، أو خدمة العملاء، أو إرسال أشخاص إلى القمر، أو إجراء عمليّات لأطفال الأنابيب؛ لهذا يسهل عليّ اكتشاف هذه البصمات التركيّة؛ فهي بارزة بروز مصابيح متوهّجة حينما تراها عين غربيّة دقيقة، لكنني سرعان ما تعلّمت ألاّ أطلق عليهم الأحكام، أو أزدريهم؛ لأنّ السبب لا يرجع إلى نقص في المهارة، أو الاهتمام، أو الدقّة في المنتج النهائي؛ فأية حضارة تستطيع أن تنجب مهندسًا معماريًا مثل سنان وغيره من أبرع الحرفيّين، يمكنها بلا شك أن تميّز بين الخطأ والصواب، غير أنّ المرء لا بدّ أن يظلّ متواضعًا، مخلصًا إنسانًا؛ فنحن جميعًا نرتكب الأخطاء، أليس كذلك؟ إذاً ها هي ذي الأخطاء تُرتكب كلّ يوم في كلّ شيء، ظاهرة للعيان كي تذكرهم بذلك؛ هذه هي الحياة على كوكبنا، وحولنا، في منازلنا، في قلوبنا.

تتجلّى أكثر الأمثلة تقليديّة وقدمًا على البصمة التركيّة في السجاجيد؛ إذ يتعمّد النّساجون ارتكاب أخطاء بالغة الصغر في عملهم؛ كحياكة

غرزة من لون مغاير، أو تعمّد تعرّج الحافة، أو الإبقاء على كتلة صغيرة من العقد الغريبة، وهذه تذكرة خفيفة بأننا نعيش في العالم الحسيّ، لا العالم الروحانيّ المثاليّ للخيالات والأحلام.

تظهر أوضّح البصمات التركيّة في الترجمة الخاطئة المضحكة كثيرًا، المنتشرة في الإشارات وقوائم الطعام، والكتب المدرسيّة؛ فربّما يَفْزَع المرء ويفرض تناول بعض ما تحويه قوائم الطعام بسبب المكتوب فيها، على سبيل المثال: سأذكر لك ترجمة السطر الأول من أفضل كتب تاريخ الفنّ التي قرأتها في حياتي - لن أخبرك بعنوان الكتاب حتى لا أجرح مشاعر الكاتب، أو المحرّر: ”إنّ حضارة أسلاف الأتراك جعلت فنّ العمارة متواصلًا، مؤلّمًا“؛ عبارة كهذه تصرفك بالطبع عن قراءة ثلاث المئة والخمسين صفحة الباقية، وبعد مرور عشر سنوات طويلة، مكلفة من ترميم مسجد بايزيد باشا في مدينة أماسيا، ما زالت لوحة بيانات المسجد المكتوبة باللغة الإنجليزيّة تعجّ بأخطاء فادحة؛ ما قولك في هذه العبارة في كتيّب السيّاح التركيّ، الرسميّ، الصادر عن حكومة مدينة قهرمانماراش، تصف طيب مذاق مثلجاتهم الشهيرة بالكلمات التالية: ”السحلب يجعل الحليب متماسكًا، وعملية خفق المثلّجات تجعلها صلبة“؛ هل يبدو هذا الوصف شهيا!

من المثير للسخرية أن تظهر بعض أغرب الأخطاء في بعض أشهر الأماكن وأهمّها، من قصر طوب قابي إلى فندق الهيلتون، وعلى ضوء خبرتي السابقة في الترجمة، استأذنت ذات مرة أحد موظفي الشؤون الثقافيّة التركيّة أن أقدم خدماتي بوصفي محرّرة أو مراجعة للكتيّبات والمطبوعات الرسميّة، وأخبرته أنّ الدولة تنفق أموالًا طائلة لإصدار هذه الدعاية، المصمّمة لجذب الأجانب لزيارة تركيا؛ لذا سيكون من الأفضل أن تصدر بلغة إنجليزيّة صحيحة راقية، فحملق إليّ مندهشًا، وأجاب قائلاً: ”أنت لا تفهمين! نحن الأتراك لا نريد للأشياء

أن تكون مثالية! هذا ليس من شيمنا!؛ حاولت أن أوضح له أن الجمهور الذي يستهدفه ربما لا يتفق معه بالضرورة في الرأي، لكنني لاحظت أن حديثي أزعجه، فلم أسهب في الكلام؛ بالفعل يبدو أن الأتراك لا يريدون أن تكون الأشياء مثالية؛ لأن هذا يتعبهم، ويزعجهم، تمامًا مثلما تسببت حماقتي في إزعاج ذلك الموظف.

يحمل عالم العمارة أمثلة جلية تعكس البصمة التركية في أوضح صورها؛ فطريقة التركيب للوحات مفاتيح الإضاءة في تركيا خير مثال على ذلك؛ إذ نادرًا ما تكون اللوحات رأسية تمامًا، بل دائمًا ما تجدها تتحرك في مكانها بمقدار عشر درجات إلى اثنتين وعشرين درجة، ويمكن أيضًا رؤية البصمات التركية في طريقة تركيب البلاط المعوج، أو المقلوب أحيانًا - رأيت بلاطًا مزخرفًا بعناقيد عنب تتدلى بالمقلوب -، وتظهر البصمات التركية في الشقوق الظاهرة بين عشيّة وضحاها في أرضية رخامية حديثة، أو في جدار مجصّص، وتظهر في شدة ميل الممرات المنحدرة المخصصة للمعاقين، حتى إنها قد تسبب في موتهم، وفي أنظمة الأساقيل المرعبة المستخدمة في مشاريع البناء أو الترميم، وفي صندوق طرد المرحاض المتعطل حينما تريده أن يعمل، ثم يُصدر في منتصف الليل هديرًا صاخبًا من تلقاء نفسه، فيوقظك، ويغمر أرضية المنزل بالماء، ويفسد حذاءك.

يمكنك رؤية البصمة التركية في أرجل الطاولة مختلفة الأطوال دائمًا، وفي الرخام المقلد للمحراب المطلي بالأرجواني، والأزرق السماوي، والوردي، في مسجد حاجي أوزبك في مدينة إزنك، أو في أنابيب الفلورسنت المبهرة المحيطة بمسجد إيليكي في مدينة قونيا، فهي تشبه أضواء ممر مهبط الطائرات، وفي الحافلات الواجب تحركها في وقت محدد، ولا يهتم أحد بمرور ساعتين دون أي إشارة تدلّ على أن الحافلة ستتحرك، وكلّ ما يفعلونه جميعًا هو طلب عدد لا نهائي من أدوار الشاي.

تظهر كذلك في رحلات الخطوط الجوية التركية؛ كانت في الماضي تلغى دون سابق إنذار، ودون أن ينزعج أحد؛ لأنه لن يلحق بالطائرة من محطة تالية إلى باريس.

تظهر تلك البصمة في القمصان القطنية تنكمش بعد غسلها أول مرة، فضلاً عن أنّ أصباغها تنطبع على جسمك، وتفوح من الجلد رائحة الحيوانات؛ وفي الأحذية البلاستيكية الرخيصة اليابسة جداً حتى إنها تتشقق بعد ارتدائها مرة واحدة، وفي الكلاب الهجينة الجرباء تجوب المنطقة الرائحة المحيطة بقلعة سيتا في قونيا، وفي القطّة تدخل أرقى المطاعم، وتتمسّح بأرجل روادها، وفي الدلاء البلاستيكية على السلم الضخم تحت أكبر ثرياً في العالم في قصر دولما بهجة كي تتجمّع فيها قطرات المطر المتساقطة من السقف، وفي البقرة المتجولة حول مسبح لأحد الفنادق ذات النجوم الخمسة كي تلوك النباتات المزروعة في أضص الزهور، دون أن يهتم أحد بإبعادها عن مقاعد رواد المسبح.

عالم السياحة والفنادق غنيّ بالبصمات التركية، قد يكون عادياً أن ترى إحدى البصمات التركية في الفنادق الصغيرة المتواضعة في المناطق الريفية، لكنّ المفاجآت كثيراً ما تكون مخبأة في المنشآت الفاخرة ذات النجوم الخمسة؛ ففي تلك الفنادق في الأناضول لا يتحدث موظف الاستقبال أيّ لغة أجنبية، ولا يعرض التلفاز سوى قناة واحدة فقط، وترى البصمات التركية أيضاً في فندق مصاعده كلّها معطّلة في الوقت نفسه، ولا يبدو أنّ أحداً منزعج أو يشتكي، وفي أجنحة فندقية مزودة بمناشف وملاءات تركية فخمة مثقّبة، وحذارٍ ثمّ حذارٍ من تلك الطيّات الخطرة في سجادة حجرة الطعام، فهي تعرقل شخصاً واحداً على الأقلّ يومياً، وتظهر البصمات التركية كذلك في رقم الحجرة المكتوب يدوياً الملصق بشريطة لاصقة شفّافة على مفتاح الباب، وفي المسمار الضخم المثبّت في الجدار لتعليق مجفّف الشعر في غرفة الملابس بمنتجع أحد

الفنادق الراقية، وفي شاشة المصعد تعرض الرقم ثلاثة عند الوصول إلى الطبقة الثانية، وفي مكالمات التنبيه في حجرتك عند الخامسة صباحاً، رغم أنّك لم تطلب إيقاظك، وفي أنصال السكاكين المثلمة وبرادات الحجرات الحارّة، وفي شجرة عيد الميلاد البالية، الملتوية، المزيّنة بكرات ثلج اصطناعيّة في بهو الفندق شهر يوليو/تموز!

تنتشر البصمات التركيّة بوفرة في الشوارع؛ تجدّها في الأسلاك الكهربائيّة المتدليّة من بناية إلى أخرى، وتكاد تلامس رأسك -سجلّت محافظة كارس رقماً قياسياً في هذا المشهد خاصّة-، وفي مكنات الصراف الآليّ المعلّقة عاليّاً على الجدار، حتى إنّها تجعل شخصاً مثليّ طولهُ ستّ أقدام مضطراً للوقوف على كرسيّ -يُوضع إلى جوار المكنات تفضلاً-، وفي نخلة صناعيّة تتلألأ بأضواء النيون في مواقف سيّارات المدينة أثناء العواصف الثلجيّة، وفي بساتين الزهور أمام المتاحف الوطنيّة في صفائح زيت الزيتون المعاد استخدامّها.

تظهر البصمات التركيّة المفضّلة لديّ في الخرائط المبتكرة توزّعها المكاتب السياحيّة الرسميّة، مرسومة يدويّاً بطريقة محبّبة، لكنّها غير واضحة إلى درجة مزعجة، وغالباً تكون معكوسة تماماً؛ فتجعل تجربة اكتشافك للشوارع في المدينة أقرب إلى رحلة "أليس في بلاد العجائب"؛ ذات مرة تلقّيت إحدى هذه الخرائط الشاحبة في مكتب للسياحة في بورصة؛ فشجّعت، وسألّت الموظّف إذا كانت لديه خريطة أخرى أفضل حالاً كي أضعها في حقيبتي؛ لتساعدني في معرفة طريقي، فأشرق وجهه، واختفى بسرعة في سعادة، ثمّ عاد بعد دقائق يترنّح بخريطة مساحة أبعاد إطارها سبع أقدام طولاً وخمس أقدام عرضاً، رفعها من على جدار مكتب المدير، ووضعها بمشقة أمامي، وقال: "هل تفيدك هذه؟"

قد تظهر البصمة التركيّة أيضاً في اللمسات الرقيقة اللطيفة يديها الأتراك، وفي الزهور الصناعيّة المرصّعة بقطرات ندى راتنجيّة (صمغيّة) في زهرّيات على طاولات المطاعم كي تبدو كمائدة السلطان، وفي الملاعق والشوك الملفوفة بعناية في مناديل ورقية مربوطة بشريطة، وفي صور جبال الألب السويسريّة المعلقة في المطاعم وسط السهول المتربة، وفي ثمار البطيخ المنحوتة بجعاً رائعاً، وفي بلاط الحمام المزخرف بورود زرقاء يزيّن الجزء الداخليّ من الجامع الكبير بمدينة سيرت.

قد تكون البصمة التركية متفاوتة ومذهلة، مثل: سماع الأذان في الرابعة وتسع دقائق صباحاً بمدينة كارس؛ لتسلّل إلى نفسي لذة موسيقىّة لا تزال تعتريني حتى الآن، أو مثل الأرصفة الرخاميّة الفخمة على جانبي شوارع مدينة أفيون الريفية المتربة؛ وأخيراً تعلّمت أنّ هذه النقائص تمنح الأشياء والعالم من حولنا حياة نابضة، وصرت مثل الأتراك أشاركهم ولعهم بها؛ علّمني أن أكون أقلّ تدقيقاً، وتذمّراً، ونقداً، وحينما أرى بصمة تركيّة غالباً ما أبتسم؛ لأنّها مضحكة جداً أحياناً، لكنّها دائماً ما تثلج صدري؛ إذ أستشعر يد الإنسان وراءها، إنّه شخص تركيّ يعرف مكانه في النظام الكونيّ للأشياء؛ وهي تعلّمني ألاّ أبالغ في تقدير نفسي، أتعرفين لماذا؟ لأنّه لا أحد كامل؛ لا أحد سوى ربّنا العظيم.

صديقتكم

قدريّة براننج



مطعم في سيلفان



لافتة بجوار المسبح في فندق فخم



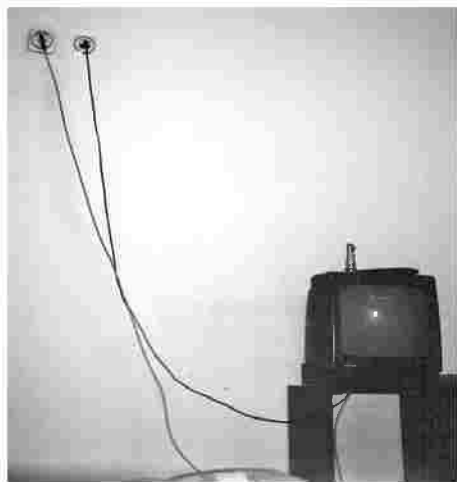
قصر دولما بهجة



أعمال ترميم في قونيا



قاسطموني



قاسطموني



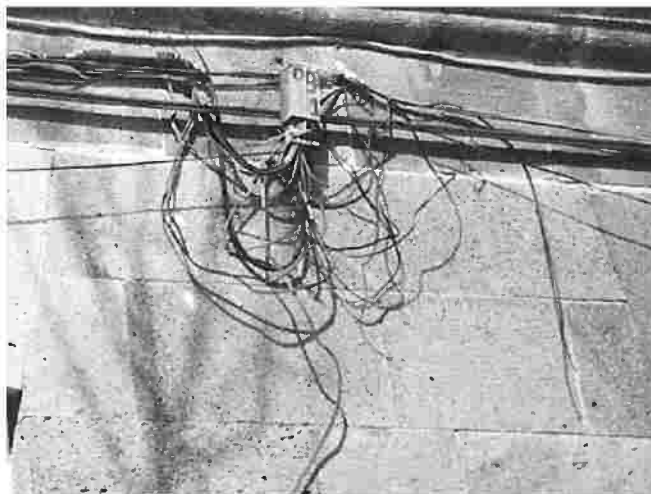
افسحوا الطريق



ممر للمعاقين



احتفالات عيد الميلاد في يوليو/تموز



كارس

Amasya'nın kuzeydoğusundadır Çelebi Mehmet Devrinde Amasya Valisi Beyazıt
1414 yılında yaptırılmıştır.

Şifalı su şemasına sahip Zaviyeli camilerdendir. Son cemaat mahallindeki kemer
ve geometrik süslemeler ilgi çekmektedir.

BEYAZIT PAŞA MOSQUE

located northeast of the Kılınc bridge. At the reign of the Çelebi Mehmet it had
by the Amasya governor.

one of the mosque that reverse T shape corner. The archs, which are placed
highly, draw attention because of the geometric adorns and handworks.

إضافات، وأعمال يدوية

الرسالة الثانية والعشرون

سجادة من سبعين مليون عقدة

عزيزتي السيّدة ماري،

كم أود أن نخرج معاً في نزهة بعد الظهر، ونركب زورقاً في البوسفور! نستطيع أن نرسو في أيّ مكان على ضفافه، ونسبط سجّادة تركيّة نجلس عليها، ونستمتع باحتساء الشاي وتناول المعجنّات والبُطِيخ، ونمتّع أعيننا بالمنظر الخلّاب، وعقولنا بحديث شائق؛ في الواقع لسنا بحاجة إلى زورق، أو إلى البوسفور كي نحظى بجلسة ممتعة؛ فأيّ مكان تبسطين فيه سجّادة تركيّة، يتحوّل إلى روضة صغيرة تفيض بهجة.

تخبريننا في رسائلك بتفاصيل كثيرة عن الحياة اليوميّة في مختلف الفترات، منها طراز الملابس، والأثاث، والجواهر، والأطعمة، والعادات، والرقص، والموسيقى؛ هذا الاهتمام بالتفاصيل جعلك أحد الروّاد لتأريخ الثقافة الحسيّة لحياة البلاط التركيّ في القرن الثامن عشر ولندوينها؛ فإحساسك بالطراز رفيع جداً؛ تصفين سترات السلطان عند ذهابه إلى المسجد، والزيّ المزخرف لرئيسة حريم القصر، وزخارف الحواشي

في ملابس الحرس، والفساتين كلّها لسيّدات البلاط اللائي زرنّتهنّ؛ بالطبع لا يمكننا أن نصفك بأنك كنت عالمة أجناس بشرية بالمعنى الحالي للكلمة، لكنك ولا شك مهّدت الطريق لعلماء الأجناس بإدراكك أهميّة أن تدوّن تفصيل الحياة كلّها مهما كانت صغيرة فلا تمرّ دون ملاحظة؛ فراقبت بعناية، وأصغيت، ودوّنت، وبفضل رؤيتك للتفاصيل الدقيقة ألقيت لنا الضوء على صورة أوسع.

ذكرت -يا سيّدة ماري- ملاحظات عن فنّ العمارة والفنون أقلّ ممّا ذكرت عن الأنماط والأساليب السائدة؛ وربّما لأنني فنّانة، فهذه أوّل الأمور التي تلفت انتباهي، كلّما مشيتُ في شارع، أو دخلت حجرة، أو سافرت، لكنك حينما تتحدّثين بالتفصيل عن الجوانب الفنيّة، يكون نظرك ثاقباً كشأنك دوماً، أمّا عشاؤك مع السيدة حفصة، فقد وصفت مناديل المائدة الشاشيّة، الرقيقة، المطرزة بزهور ذهبيّة: "... شعرت بالأسف الشديد عندما استخدمت هذه المناديل النفيسة، المشغولة كأروع ما أنتج هذا البلد من مناديل على الإطلاق؛" ومضيت تصفين الأوعية الخزفيّة ذات الأعطية الذهبيّة الصلبة، والسكاكين الذهبيّة ذات المقابض المرصّعة بالألماس، وحوض الاستحمام الذهبيّ والمناشف المطرّزة، تصفين في إحدى رسائلك الأخيرة القصور الخشبيّة المبنية على ضفاف البوسفور وزخارفها:

"أرصفة بيضاء، وأسقف مذهّبة، وجدران مكسوّة بالخزف اليابانيّ، وألواح الخشب المصدّف المرصّعة بالزمرّد على شكل مسامير، وكلّ شيء مزخرف بقدر كبير من المرمّر، وأطباق الخزف من الأنواع كلّها، والجصّ الملون، وقدر الزهور، وإطارات النوافذ من أرقى أنواع البلّور مزينة بأروع رسوم الفواكه والزهور".

هناك رسالة من أكثر رسائلك حيويّة تركّز على فنّ العمارة أيضاً، تلك الرسالة تصفين فيها زيارتك لجامع السليميّة في أدرنة، بناء المعماريّ

الشهير سنان للسلطان سليم الثاني عام ١٥٦٩م؛ كنت محققة في قولك: "إن هذا المبنى جدير بالفعل بكل ذرة اهتمام يوليها له السائحون"؛ إذ يعد بحق تحفة سنان الفنية، وقد اضطررت لارتداء زي تركي كي تتمكني من الدخول، ثم وصفت الجامع بتفاصيل دقيقة تتفوق على أوصاف لاحقة كتبها مؤرخو عمارة مُحَدِّثون؛ لم تغفلي عن معلّم واحد في هذه الرسالة الطويلة، بدءاً من ساحة الجامع إلى القباب، والرواق بأعمدته الرخامية الزبرجدية العتيقة، والارتفاع الشديد بفضل نظام القبة الواحدة، والأسوار الرُخاميّة، والسجاجيد الفارسيّة، والمنبر العظيم المصنوع من الخشب المذهب المنحوت، وبهو العبادة الخاص بالسلطان، والشموع البيضاء، والمآذن الأربع الشاهقة، ودفعك الفضول لصعودها! قد يتفق معك كثيرون في العصر الحاضر؛ فهذا أعرق بناء رأيته على الإطلاق، وقد أسعدني إعجابك بزخرفته خاصّة، بدت لي الحوائط مطعمة بأحجار ألوانها في منتهى الحيويّة على هيئة زهور صغيرة، لم أستطع تخمين الأحجار المستخدمة، لكنني لما اقتربت وجدتها مكسوة بخزف ياباني، يُضفي تأثيراً رائعاً، اندهشت لظنك الطلاء الثخين المزجج على بلاط إزنيك أحجاراً، وبهرني أنك استطعت تمييز الأثر الآسيوي فيها.

تصويرك لجامع السليميّة والقصور الخشبيّة دقيق جداً، ومفعم بالحياة حتى جعلني أشعر كأنني أشاهدها، وهو وصف أكثر إثارة من أي صورة فوتوغرافية، غير أنّ ما يدهشني قلة حديثك عن السجاجيد؛ فهل السبب أنّ السجاجيد التركيّة كانت مألوفة حتى إنّك لم تشعرني بالحاجة لوصفها؟ فالسجاجيد الراجعة إلى القرن السادس عشر المبسوطة في القاعة الكبرى -تلك السجاجيد العملاقة بحجم الغرفة كلّها المنسوجة في مشغل بلاط السلاطين سليمان الأوّل، والثاني، ومراد الثالث- كانت قد انتشرت في إنجلترا منذ وقت طويل لتزيّن أرقى القصور الريفيّة، ولا شك أنّ بيت عائلتك "ثورسبي هول" ضمّ واحدة منها، رغم أنّها مصنوعة

في المشاغل، إلا أنها رائعة، غير أنني أفضل السجاجيد الأصغر حجمًا، كالتي قد نأخذها معنا؛ لنجلس عليها في حفل شاي سنقيمه على ضفاف البوسفور؛ إنها سجاجيد تغزلها امرأة نسّاجة تجلس وحدها أمام نولها.

ينتج الأتراك بعضًا من أروع السجاجيد في العالم، ونادرًا ما يعود أحد زوّار تركيا من رحلته دون سجّادة معه في حقيبته، لكنّ السجّادة للشخص التركيّ أكثر من بساط جميل يوضع على الأرضيّة؛ إنها قطعة فنيّة.

حينما نتحدّث عن الفنّ في الغرب، تتبادر إلى أذهاننا سلال الفاكهة، والسّيّدات العرايا، والمناظر الطبعيّة المعلّقة على جدران المتاحف أو اللوحات المتهافت بعض الناس على اقتنائها بملايين الدولارات في سوق فنيّة محمومة، ويتبادر إلى أذهاننا جامعو القطع الفنيّة رفيعو الشأن المتعجرفون، أو المثقّفون المتدوّقون للجمال، أو نجوم الفنّ، مثل: بيكاسو وماتيس، ويرتبط الفنّ في ذهن الغربيّ العاديّ بأنّه مدنيّ، دينيّ، تجريديّ، ثقافيّ، ذكوريّ، ينتمي للطبقة الراقية، يرتبط بوجه عام باللوحات الزيتيّة، لكنّ الفكرة مختلفة في تركيا، ومفهوم الفنّ لدى الأتراك يعني أيّ شيء يُصنع بمهارة عالية مع الاهتمام الشديد بالتفاصيل؛ لهذا فالمهارة التقنيّة والنظام لا يقلّان أهميّة عن الإلهام والحدس.

الفنّ في تركيا مشاع؛ للشخص العاديّ، والقرويّ، والمدنيّ على حدّ سواء، والأتراك عمليّون، وفنّونهم عمليّة أيضًا؛ فيستخدمون العناصر المتوفّرة حولهم، مثل: الجوز من الغابات الشماليّة، والرخام من المحاجر القريبة في أفيون، والصوف المنسوج يدويًا من الغنم الحيّة، وأصباغ الخضروات والأعشاب، والصلصال الجافّ، ولا مجال للترف في الأعمال الفنيّة التركيّة؛ فمقدار الانتفاع هو الفیصل؛ إذ لا بدّ أن يكون الغرض عمليًّا مفيدًا لا زينة فقط؛ فيصنعون قطعًا فنيّة أبدعها مجتهدون، يستخدمون الأدوات والإبر، ويجلسون أمام النيران والأنوال.

تشكل الحرف اليدوية أساس الفن التركي، وتتضمن فن الخط، وأشغال الصدف، وفن ترخيم الأوراق، والنسيج، وصناعة الجلد لعمل المعاطف والشروج، وتطريز الحوائف، وصنع اللباد، والحياكة، والتقطيب، والفخار، ومشغولات النحاس، وصناعة السلال، والنجارة.

يبنى الأتراك بيوتاً من الخشب والصخر وألواح البلاط، وينسجون الملابس والمنسوجات المنزلية، ويستخدمون حبيبات الخرز الزجاجي لزيئتهم أو تزيين سروج دوابهم، وينقشون الملائق الخشبية؛ ليأكلوا بها أصناف اليخنة والحساء الشهية؛ والعناصر الزخرفية عندهم مستمدة إما من عالم الطبيعة -وأحبها إليهم الزهور والطيور- أو من الرموز الحسابية والفكرية لعلم الهندسة.

يكن الأتراك مشاعر قوية لبلادهم، وعوائلهم، ودينهم، وحرفهم، ويعتقدون أن البراعة والمهارة عنصران رئيسان للفن، ويقدرّون الأهمية الدينية والتاريخية للزخارف التي يستخدمونها، ويحاولون أيضاً إضفاء نوع من القداسة على فنهم من خلال جعله أروع ما صنع بشر وأكمّله؛ لأن المهارة تمجيد لله، ومن الملاحظ أنهم يتسمون بالجرأة والصرامة في عملهم؛ لذا تجد فنهم أشبه بطعامهم: مباشر، يخلو من التفاهات، مستمد من تراثهم ودينهم وثقافتهم الإقليمية، وهو تراث بالغ الأهمية حتى إنهم يفخرون بإعادة تقديمه مراراً وتكراراً؛ وهدف الفنان التركي في الواقع واضح جداً؛ إذ يريد صنع قطعة جميلة باستخدام أفضل مهاراته، قطعة تعكس حبه لله ولعائلته، وتنفع الآخرين؛ الأمر بهذه السهولة.

لماذا اختار الأتراك السجاجيد، واختار الفرنسيون الطعام والطراز، واختار الأمريكيون الموسيقى، واختار الإيطاليون السينما، واختار البريطانيون الحدائق؛ ليعبروا من خلالها عن هويتهم الثقافية؟ لا أدري! لكن الفن تعبير عن الإنسان، ويظهر على نحو مختلف في كل ثقافة؛

إنَّه تعبير عن الثقافة الحسيَّة لعصره، وانعكاس لزمان بعينه، ومكان بعينه، وثقافة بعينها، ورؤية الفنَّان المبتكر؛ يمكنك أن تكتشفي كثيرًا عن تركيا بالنظر إلى مصنوعات الأتراك، وفي اللحظات الحزينة التي أظنَّ فيها أنني لن أفهم أبدًا لغتهم المنطوقة، تكون لغة أعمالهم، لا سيَّما السجاجيد، مفهومة تمامًا، وتجعلني أكثر قربًا منهم.

كم يعجبني فنَّهم الجامع بين احترام التقاليد والسعي إلى التغير والنموّ في الوقت نفسه؛ لطالما جعلتني الطريقة التركيَّة السلسلة في مزج القديم بالحديث في أمور الحياة اليوميَّة أشعر بالراحة هناك؛ فالأطلال الرومانيَّة جوار المدارس السلجوقيَّة والأسوار البيزنطيَّة والفوَّارات العثمانيَّة، والحدائق والأزهار تزدهر جانب الجدران الخرسانيَّة، والطرق السريعة تزاخم الجسور والقنوات القديمة؛ مزيج يتناقض فيه ضجيج الشوارع مع سكون المنازل، وتقع فيه الأماكن التجاريَّة والأضرحة جنبًا إلى جنب، والمجال واسع هنا لسماع الأصوات الفنيَّة المختلفة كلّها واحترامها، تمامًا كما يحدث وقت الصلاة، فالجزء من الثانية الفارق بين بداية أذان وآخر، واختلاف طبقات أصوات المؤذنين تمتزج لتمنح العبارة الواحدة أصواتًا مختلفة؛ فيكون كصدى صيحات طيور النورس المحلَّقة في سماء ميناء أمين أنو؛ ينطبق هذا الاحترام للقديم والحديث على حرِّفهم؛ فهي تمثِّل فنَّ الأتراك؛ فكليَّات الفنون الجميلة التي تعلَّم النحت والرسم في الغرب لم تترك في الأغلب أثرًا يُذكر في تعبيرها الفنيّ.

الأتراك يقدِّرون جدًّا من يعملون بالخشب، ويجدلون السِّلال، وينسجون الصوف؛ فلا فرق بين الفنّ والحِرَف هنا؛ فالحِرَف كلّها فنون؛ ثقة الأتراك في رسالتهم الفنيَّة - بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى - من أقوى عوامل جذب تركيا لي شخصيًّا بوصفي فنانة حرفيَّة.

احتدم الصراع في الغرب بين الفنون والحرف على مدار الثلاثين عاماً الماضية، ولم يبدأ في الخمود إلا في الوقت الحاضر؛ كان "الفن" يُعرّف عادة بأنه أي شيء يُبتكر للتأمل الجمالي خصيصاً، بينما اعتمد تعريف "الحرفة" على وظيفتها النفعيّة في المقام الأول، وظلّ علماء الفن ومؤرخوه يناقشون طويلاً هذا الفرق، حتى تمكنوا في النهاية من التوصل إلى قاعدة مشتركة مريحة، والمتاحف الفنيّة الكثيرة المنشأة في الغرب خلال العشرين عاماً الأخيرة والمخصّصة للفنون القديمة خير دليل على ذلك، لكن ما زالت هناك آثار للتمييز بين الاثنين، وبوصفي من فنّاني صناعة الزجاج، يجب أن أستخدم يديّ في التعبير بقوة وبراعة، وحينما أحّدق في قطعة مصنوعة بيديّ فنّان تركي، أستطيع أن أرى آثار يديه القويّتين أيضاً؛ ولعلّ هذا سبب انجذابي لتركيا؛ فهي أرض غنيّة بالفنّانين الحرفيّين البارعين المدركين أنّ التفوّق الفنّي يكمن في المزج بين الجمال والمنفعة، وحينما تُصنع قطعة بموهبة، ومهارة، وإخلاص، وحبّ، فإنّها تصبح قطعة "فنيّة".

عندما أصنع زهرية أو كوباً من الزجاج، تتاح لي فرصة للتعبير عن الإبداع والمهارة والعمل الجادّ، والأترك أيضاً يفكرون بهذه الطريقة؛ فأعمالهم مصنوعة بعناية وحبّ، وهذا ما يميّزها عن المنتجات جملة؛ فهناك عين تزن القطعة، ويد تلمسها، فتعكس الإرادة والروح الفرديّة، وأحياناً تحمل البصمة التركيّة بالغة التميّز، ويعتقد الأتراك أنّ الفنّ ينبغي أن يظهر في الأنشطة اليوميّة جميعها، من صبّ الماء إلى نقل الخضراوات وتقليب محتويات القدور؛ فيضفون جلالاً على أنشطة الحياة اليوميّة، ويملئونها سموّاً، وجمالاً، وروعة.

نجد في نهاية المطاف أنّ مسعى فنّاني "المشغولات" وفنّاني الفنون الجميلة واحد؛ نسعى جميعاً إلى الإبداع، ونبذل من أنفسنا في فنّنا من خلال تنمية مهارتنا، ونحن فضوليّون نتحدّى الحالة الراهنة؛ لتتجرأ،

ونحلّم، ونحاول أن نتعلّم من أعمالنا، ونعتقد أنّ عمليّة الإبداع أهمّ من المنتج النهائي، ونحاول أن نفهم الفنّ العميق الكامن فينا، ونعطي أهميّة خاصّة للعين الثالثة بداخلنا؛ يمكنني أن أرى انعكاسات هذه المساعي كلّها، حينما أنظر إلى سجّادة أو ملعقة خشبيّة تركيّة، وأشعر في كلّ زهرة ساحرة مرسومة على طبق من إزناك بمشاعر حبّ الطبيعة وعناصرها الغنيّة الممتزجة بالألوان التي يشعر بها الأتراك كلّهم، وأشعر مع كلّ انحناءة للخطّ العربيّ بقلب يتّجه إلى الله، وأرى في كلّ عقدة منسوجة وجه امرأة تركيّة، وأشعر بدفء مشاعرها وابتهاجها بالحياة.

يا لها من عقد! من بين الفنون التركية كلّها أجدني منجذبة انجذاباً خاصّاً إلى هذه السجاجيد الغنيّة بالألوان؛ فالعقد في السجاجيد تتحدّث إليّ بقوة الكلمات، تماماً، مثل تلك الأحجار الذهبيّة التي حدّثت عنها من قبل، وأخبرتني في بداية هذه الرسالة يا سيدة ماري أنّي أميل بوجه خاصّ إلى القرى الصغيرة والسجاجيد البدويّة، يمكن أن نأخذها معنا لنجلس عليها على ضفاف البوسفور في نزهتنا؛ لا أتحدّث عن السجاجيد الضخمة في القاعات الكبرى العائدة إلى القرن السادس عشر؛ إذ تختلف اختلافاً تامّاً عن سجاجيد القرى؛ فتلك من صنع الذكور تحت إشراف البلاط، وتأثّرت إلى حد بعيد بالعناصر الجماليّة الفارسيّة؛ إذ كان النّسّاجون ينفّذون رسومات متقنة رسمها فنانون البلاط، لكنني أتحدّث عمّا أسميه ”السجاجيد السحريّة“؛ سجاجيد تُصنع في القرى الصغيرة أو القبائل البدويّة، وأغلب النماذج الرائعة الباقية حتى الآن كانت قد نُسجت في الفترة بين عامي (١٨٥٠م - ١٩٢٥م) باستخدام أصباغ طبيعيّة مستخرجة من الخضراوات، ولا تزال ألوان هذه السجاجيد تشعّ حياة كيوم نُسجت، ولا تزال ألوانها وأشكالها تُلهم النّسّاجين اليوم، ومنذ القدم حتى اليوم تشارك مختلف الأيدي السحريّة في صنع السجاجيد، كأيدي الرجال والنساء الذين رعوا الغنم، واعتنوا بها، وجزّوا أصوافها،

ومشطوها، وغزلوها خيوطاً، وجمعوا الأعشاب لصنع الأصباغ، وصبغوا الصوف، وصنعوا الأنوال، وعقدوا عقد السجاجيد بتصميم في ذاكرتهم البصريّة البدويّة، وقد صنعت هذه السجاجيد النافعة لأغراض دينيّة، أو منزليّة، أو زراعيّة، أو لتوضع في صندوق العروس، أو لتباع في السوق، حملها القرويّون على كواهلهم، وأكلوا عليها، وناموا، أو التحفوا بها، وكانت تُستخدم أيضاً أبواباً للخيام، وحاويات للملح والطعام، ومهوداً للأطفال، وأحلاساً للدواب، وزينة للخيام، أو كانت هي نفسها جوانب خيام تُطوى وتُثنى؛ قد تكون السجاجيد السحريّة بساطاً من العقد أو كليّماً رخيصاً أو قطعة مطرّزة، وقد تتخذ مجموعة واسعة من الأشكال وفقاً للغرض منها؛ فالسجادة جزء مهمّ من حياة المنزل التركيّ، شأنها شأن من يقيمون فيه.

أجد السجاجيد بالغة الروعة؛ لست خبيرة في صناعة السجاد، ولا أنظر إليها بعين مؤرّخ فنيّ، بل أنظر إليها بعين الفنان، وأنفاعل معها على المستوى البصريّ والحسيّ الخالص، فعندما أرى سجادة لا أجثو على الأرض؛ لأعدّ عقدها، ولا أحلّل ألوانها؛ فالقطع الفنيّة والتصميمات المألوفة الموصوفة بسهولة، غالباً ما تكون عملاً رائعاً مذهشاً في مغزاه ورمزيّته، إذ يتكرر النّساجون قطعاً جميلة تثري الروح وتشبع الفكر، شأنها في ذلك شأن أيّ عمل يوصف بأنّه عمل فنيّ عظيم.

علمتني السجاجيد التركيّة كيف أستخدم مبادئ التصميم نفسها التي تجذبني إليها في ممارستي فنّ صناعة الزجاج؛ فهذه السجاجيد غنيّة بالألوان، تعتمد على درجات ظلال تستخدم الألوان الشاحبة، والألوان الأساسيّة، وخليطاً من كل ما في قوس قزح من ألوان مع اختلاف درجات تلك الألوان، وغالباً ما يُنتقى لون دافئ خاطف للبصر؛ ليرز بوضوح؛ فهي سجاجيد صريحة عفويّة مفعمة بالحويّة، جريئة من حيث التصميم واللون، لا تخشى نشوز الأشكال أو فوضى الألوان غير

المقبولة؛ بعض السجاجيد قد تذهلك قوتها وألوانها ووضوحها، وبعض القطع الأخرى ينبعث منها سكون تامّ مستمدّ من البصمة الناعمة الرقيقة ذات الارتباط بعنصري التصميم واللون؛ والصوف المستخدم كثيف لكنّه مرّن؛ فيضفي على السجاجيد عمقاً؛ أشعر كأنّها سجاجيد حيّة؛ ربّما لأنّ صوفها يظلّ حيّاً بطريقة ما، وربّما لأنّني أستطيع أن أشمّ رائحة الطبيعة في أصباغها الطبعيّة اللينة المستخلصة من النباتات، والمعادن، والعناصر الحيوانيّة المتوفّرة في الطبعيّة حولنا؛ والسجاجيد القرويّة تتلأّأ، وتنبض بالحياة، وتغنّي كالأزهار، وأشعة الشمس، والطيور، والحيوانات، والنجوم، وأقواس قزح، والحقول الخضراء المرسومة عليها، ولا تستحيي من عيوبها، بل إنّها تسعى غالباً لتضمين البصمة التركيّة؛ لتبدو ساذجة متواضعة؛ تلك العيوب الصغيرة الظاهرة في الحرفة تشير إلى اليد البشريّة في المنتج النهائيّ، وكلّ ما تتمناه هذه السجاجيد المتواضعة أن تُقابل بالتقدير وهي كما هي؛ لهذه الأسباب وغيرها من أسباب عاطفيّة كثيرة، تبثّ في هذه السجاجيد سعادة وبهجة صادقة.

لا ينبع افتتاني بالسجاجيد من رؤية فنيّة فحسب، بل أيضاً لأنّها تتحدث إلّي بوصفي امرأة؛ فلا شكّ أنّني منجذبة لهذه السجاجيد الريفيّة والبدويّة لأنّها تمثّل فنّاً أنثويّاً؛ لطالما كانت السجاجيد والمنسوجات في الأغلب فنوناً أنثويّة، تنمو وتزدهر بعيداً عن هيمنة المنظور الذكوريّ؛ فهي بمنزلة صور شخصيّة للنساء التركيّات؛ تمثل تعبيرهنّ الشخصيّ المفعم بمعانٍ خاصّة، لكنّها في الوقت نفسه تمثّل تصرّيحاً علنيّاً للعالم كلّ؛ إذ تمنح السجاجيد النّسّاجة شعوراً بارتباطها بما حولها، تماماً كرسائلك لأصدقائك يا سيّدة ماري؛ تلعب المرأة التركيّة بالعُقد، كما نلعب أنا وأنت بالفكر والكلمات.

السجّادة مستقلة استقلال من نسجها؛ فعندما أنظر إلى سجّادة، أفكر دائماً فيها؛ فلكلّ نسّاجة بصمة خاصّة خصوصيّة شعر صغيرها

أو بشرة زوجها؛ مثلاً قصيرة هي أم طويلة؟ كم عدد أطفالها؟ أتطيع زوجها أم تجادله؟ أجميلة هي؟ كيف ضحكته؟ هل تحلم بما أحلم به؟ ما هي مشاعرها ورغباتها؟ وأحاول أن أخمن عمرها بناءً على مستوى حُرْفِيَّتِها؛ صحيح أنّ هذه السجاجيد لا تحمل توقيع صانعتها، لكنّها تفتح نافذة خاصّة جداً على روحها؛ فأشعر بالارتباط بالنسّاجة؛ إذ أرى بعض نفسي في السجّادة كما تترك بعض نفسها فيها؛ فأثار لمستها وحبّها واضحة فيها، كما تتّضح في احتوائها زوجها وأطفالها، أتخيل أحياناً أنني أرى نساء حمرات الشعر في السجاجيد المربّعة الزاهية المنسوجة غرب تركيا، ونساء بنيّات الشعر في سجاجيد الصلاة الصفراء الدكناء المنسوجة أواسط الأناضول، ونساء سوداوات الشعر في جيوب السُرُج الدكناء المنسوجة شرقاً.

أعمل في صَهر الزجاج، وهو عنصر صعب يتطلّب جهداً كبيراً لإتقان صناعته؛ فأدرك ما تواجهه النسّاجة من صعوبات؛ فعمل عُقد السجاجيد لون من ألوان الفنون الصعبة أيضاً، وأحياناً أشعر كأنني أجلس إلى جوار النسّاجة أمام النّول، وأستشعر تفاوت قوّة يديها وقوّة شدّ الخيط من يوم لآخر مع كلّ تغير في العُقد، وأشعر بخيبة أملها عندما تجد صعوبة في تنفيذ الشكل؛ فيخرج المنتج مخالفاً، أو عندما تغيب عن ناظرها نقطة المركز الحمراء التخيلية بثلاثي السجّادة؛ فتراودني المخاوف نفسها، وأتمنى أن تصبح قطعتي صحيحة في النهاية؛ لأنّ صنع الأشياء الجميلة يتطلّب شجاعة يا سيّدة ماري.

أرى في هذه السجاجيد تعبيراً عن وجهة نظر امرأة ما في العالم، وأجد فيها مكّونات حياتي نفسها بوصفي امرأة عصريّة غربيّة، وهي تشمل العمل، والأسرة، والحياة العاطفيّة، والمجتمع، والجانب الروحي؛ إذ تتمتّع هذه السجاجيد بحياة خاصّة وقصّة فيها، تبدوان في ترتيب الألوان، وتنسيق الزخارف، وغيرها من رموز "السرد" الأخرى ذات

الأهمية السحرية؛ لذا أعدّ هذا البحث عن وسيلة للتعبير عن عالم المرأة المختبئة أمرًا في غاية الشجاعة؛ ليتني ألتقي النساء خلف هذه السجاجيد؛ إذ تمتّعن بخصائص، أكافح للتخلي بها في حياتي؛ فكلّ منهنّ تبدو حادة الذهن، ذكية، ماهرة كريمة، مبدعة، صبورة، منظّمة، قادرة على القيام بعدّة أعمال جادة في الوقت نفسه؛ أنا معجبة بهنّ، وأتمنّاهنّ صديقات.

يؤمن الأتراك أنّ قدر المرء مكتوب على جبينه، وأنّ الله حدّد مصائرنا قبل بدء الزمان، وأنّ إرادتنا الخاصة لا تتحكّم في العالم، لكنّ هذا لا يتعارض والإرادة الإنسانية الحرة؛ أعتقد أنّ النسّاجة يمكنها من خلال هذه السجاجيد أن تمارس تلك الحرية؛ فتقرّر كيف سيتعاون يداها وعيناها وعقلها للتعبير عن روحها، ويمكنها أن تختار ألوانها لسبب شخصي؛ فاللون الأحمر لون التفّاح أو لون دمها أو حرارتها أو لون الغروب، والأزرق لون السماء التي تنظر إليها سعيدة، وتختار النسّاجة إطار السجادة؛ ليرسل رسالة من خلال رموزه؛ فيخبرنا إذا كانت قد أنهتها على عجل؛ لتعكس ألمها، وتختار الوحدات التي ستكرّرها، سواء كانت تصميمًا عتيقًا أم تصميمًا تبتكره أثناء عملها؛ لا يسعنا إلّا أن نخمّن دوافعها؛ فقصة كلّ امرأة، وعمل يديها، وجُلّ شخصيتها مسكوبة في هذه القطع؛ كأنها تقول: اليوم بمساعدة هذا النول، أنا المتحكّمة، وقراراتي بيدي وحدي؛ فلا شأن لأطفالي وزوجي بما سأفعله، هذه عقّدي أنا، وهذه السجادة فرصتي للاتصال بالنساء الأخريات كلّهنّ، من خلال تراشي، ومستقبلي والتقاليد؛ إذ تسمح لي بالتعبير عن نفسي، وعن آمالي وتطلعاتي ومهارتي، وعن أهمّ شيء: حبي.

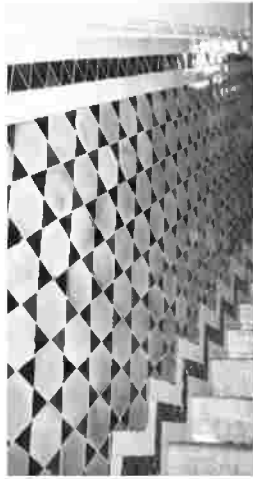
تلك العقد ليست مجردّ خيوط متشابكة في نظر النسّاجة، بل خيوط تضمّ أحلامها، وردود أفعالها تُجاه مباحج الحياة وأحزانها واضطراباتهما؛ فتستحيل السجادة إلى تعبير شخصي قويّ متاحٍ رؤيته للناس جميعًا؛ ليت نساء العالم كلّهنّ يستطعن إيجاد متنفس مبدع كهذا للتعبير عن أنفسهنّ.

أكثر ما يعجبني في هذه السجاجيد -بعيداً عن جمالها الفنيّ والرابط الأنثويّ الذي يربطني بنساجتها- يتمثل في كيفية تعبيرها عن الحيوة والتميز اللذين يميزان المناطق الجغرافية المختلفة في تركيا؛ فهو بلد ذو تنوع طبيعيّ هائل، يظهر بوضوح في هذه السجاجيد؛ فالسجاجيد المربعة الشخينة المنسوجة في منطقة غرب بحر إيجه تعكس بسايتين الزيتون وحقول القطن، بينما تبرز سجاجيد الصلاة المنسوجة في أواسط الأناضول زهور دوّار الشمس الصفراء، أمّا السجاجيد الكردية المنسوجة في المنطقة الشرقية، فتعكس القوة الطبيعية للمناظر الجبلية، ويعجبني بشكل خاصّ الرابط الاجتماعيّ بين هذه السجاجيد المتنوعة، وبين البلاد والشعب التركيّ الذي عرفته وأحببته على مدار ثلاثين عاماً مضت.

نسج السجاد حرفة قديمة قدم البشر، وتركيا بلد حضاريّ يضمّ ثقافات تعود إلى عشرة آلاف عام؛ فأعدّ هذه السجاجيد مرآة صادقة تعكس التراث الثقافيّ التاريخيّ المذهل الذي تشكّل من هذه الأرض وشعبها، وأرى في مرآة السجاجيد القروية خاصّة انعكاساً لكثير من صفات الأتراك التي تعجبني، مثل: السهولة، والاستقامة، والدفء، والحنان، والجِدّ، والاجتهاد، والكرم، والإخلاص، والاهتمام بما يصبّ في مصلحة الآخرين، والقناعة بأننا جميعاً في هذه الحياة أسرة واحدة على المستويين الضيق والواسع؛ حقاً إنّ تركيا سجادة غنية بالألوان صنّع عُقدها سبعون مليون شخص.

صديقتكم

كاثرين براننج



درج يؤدي إلى مطعم "بانديلي" في إسطنبول



الجزء الداخلي من ضريح السلطان جَم في بورصة



سجاجيد جامع إيليكنجي في قونيا



مدخل في متحف علم الأجناس بقيصري



جلس الحصان، وعربة مزرعة مزينة في أرضروم



سجاجيد تليق بمصلّى سلطان، مسجد علاء الدين في نيدة

الرسالة الثالثة والعشرون

عشرت عليه في قلبي

عزيزتي السيدة ماري،

عندما أسافر إلى تركيا، أمكث عادة بضعة أيام في إسطنبول قبل أن أتوجه إلى "تركيتي" وسط الأناضول وشرقها؛ تساعدني هذه الأيام القليلة أن أضبط إيقاعي، وأنقل من الإيقاع الجنوبي لمدينة نيويورك إلى الإيقاع الهادئ لتركيا، وأن أتأقلم مع مباحجها؛ فأضبط أذني على وقع اللغة التركية العذب، وأتذوق أول ملعقة من اللبن الخثير، وأسمع أول كلمة "يوك: لا يوجد" وكلمة "وار: يوجد"، وأرى أول الوجوه المشرقة بالبسمة، وأتلقى أول لمسة حنونة، وألاحظ بصمة تركية جديدة، وأعيش التجربة الأولى لسماع الأذان؛ تُعدني هذه الأيام القليلة لمزيد من الاستيعاب والتجاوب مع الاختلافات بين مجتمعي الغربي المُتمدّن والأناضول.

بالمثل يا سيّدة ماري، فرحلتك عبر أوربا كانت تمهيداً مهماً قبل وصولك إلى تركيا؛ فكانت أول مواجهة حقيقية مع الاختلافات الثقافية؛ لا شك أنّ العادات الأوربية لم تشبه عادات إنجلترا، خاصة فيما يتعلق بالدين، ورسائلك من أوربا حافلة بوصف التقاليد الدقيقة المنمّقة لدى تقليد المناصب في الكنائس الكاثوليكية، وعلى النقيض من

عقيدتك البروتستانتية السهلة، بدت لك الطقوس كلها تأليهاً مبالغاً فيه، وقد تفهمت رأيك تماماً؛ لأنني شعرت بأحاسيس مماثلة عندما ذهبت للعيش في المناطق الكاثوليكية من فرنسا؛ إذ تختلف الكاتدرائيات القوطية الفخمة كل الاختلاف عن المقصورات الساذجة والمذابح غير المزخرفة في كنيسة الميثودية بوطني.

عقب مشاهدة مظاهر "البابوية" كلها في طريقك، تغير كل شيء لدى وصولك إلى بلجراد وإقامتك في منزل معلمك أحمد أفندي؛ إذ منحك أول فرصة للتعرف إلى الإسلام، الذي وصفته بأنه أكثر تناسباً مع تعاليم البروتستانتية السهلة؛ لأننا نحن الاثنين نتبع المذهب البروتستانتي، فقد حضرنا إلى تركيا بعقلية مفتوحة على هذا الدين الخالي من المناصب، والتماثيل، وملابس الطقوس الدينية المزخرفة، وفي سعيك لفهم العلاقات بين الثقافتين، تحدثت مراراً مع أحمد خلال الأسابيع الثلاثة التي أقمتها في منزله:

"منحني الحديث اليومي الودي مع أحمد أفندي الفرصة للتعرف إلى دينهم وأخلاقهم بتفاصيل أدق مما فعل أي مسيحي من قبل؛ شرحت له الفرق بين مذهبي إنجلترا وروما، وسرّ لدى سماعه أنّ هناك مسيحيين لا يتعبّدون للتماثيل ولا يؤلّهون السيدة مريم العذراء؛ شعر أنّ تحوّل الشكّين -تحوّل الخبز والنبذ إلى لحم المسيح ودمه في الطقوس الكنسية- فكرة حمقاء، وأكّد أنّني إذا أتقنت اللغة العربية، فسأسعد كثيراً بقراءة القرآن؛ فهو أفضل منهج أخلاق نزل بأفضل اللغات، وسبق أن سمعت بعض المسيحيين الموضوعيين يتحدثون عن القرآن بالأسلوب نفسه..."

أكّدت زيارتك لجامع السليمية بأدرنة شعورك بالارتياح تجاه سهولة تعاليم الإسلام، وفي ذلك تقولين:

”في رأيي من أوجه الجمال الإضافية أن المسجد غير مقسّم إلى مقصورات، ولا يعجّ بالتماثيل والمقاعد الخشبيّة كما في كنائسنا، وأنّه يخلو من الأعمدة المشوّهة بتماثيل صغيرة مزخرفة، وصور تضيفي على الكنائس الكاثوليكيّة طابع متاجر اللّعب“.

ذكرت الدين كثيرًا في رسائلك، وتحدّثت عن اليهود في أدرنة، وكيف تمكّنوا من جعل أنفسهم جالية لا يمكن الاستغناء عنها لأعمال السلطان، وحاولت أن تصحّحي كثيرًا من المعتقدات الغربيّة السلبية عن تركيا ودينها، ودحضت الرّؤية الغربيّة المنادية بعدم منطقيّة الدين الإسلاميّ، حتى إنك شكّكت في كون أوربا مهد المنطق والفكر، ورغم أنّك انتقدت العقيدة الكاثوليكيّة الأوربيّة في رسائلك، فإنك تحدّثت عن الإسلام برقة ولطف، وتمكّنت من التغاضي عن المذاهب والاختلافات، وما نتج عنهما من آثار مجتمعيّة، حاولت أن أفعل الشيء نفسه في تعاملتي مع الإسلام.

كم كان أحمد دليلًا رائعًا ومدهشًا ومقنعًا! إذ كتبت لصديقك القس كونتي رسالة بتاريخ الأوّل من أبريل/نيسان عام ١٧١٧م عقب وصولك إلى أدرنة، تطلعيّنه فيها على انطباعاتك عن الإسلام:

”لا شكّ أنّ معرفتنا بأخلاق هؤلاء الناس وعاداتهم قاصرة جدًّا؛ فهذا الجزء من العالم لا يرتاده إلاّ التّجار غير المبالين إلاّ بشؤونهم الخاصّة، أو الرّحالة المقيمون فترات أقصر من أن تتيح لهم تسجيل أيّ شيء بدقّة؛ إذ إنهم يعتمدون على معلوماتهم الشخصيّة“.

ليس من المستغرب محاولتك استكشاف العادات التركيّة، فأنت امرأة على قدر كبير من الذكاء، والحساسية، والفضول، والأهمّ من ذلك أنّك محظوظة؛ فلست مجرد مسافرة عابرة؛ ففي كلّ عام يزور تركيا ملايين السائحين، يأتي جُلّهم من بلدان غير إسلاميّة، يستمتعون بجمال الطبيعة

في الريف، ويزورون المواقع التاريخية لمختلف الحضارات، ويستجمّون على الشواطئ، ويروّحون عن أنفسهم في الملاهي، يزور أغلبهم أحد المساجد ضمن برنامج المجموعة السياحي، ودائمًا تكون الزيارة إلى مسجد السلطان أحمد الشهير "المسجد الأزرق" في الهيبودروم -ميدان سباق الخيل- في إسطنبول، غير أنّ هؤلاء السائحين قبل هذه الزيارة لاحظوا الأفق الحافل بمآذن على شكل القلم الرصاص، والنساء المحتجبات، وبالطبع تناهى إلى أسماعهم صوت الأذان المتردد في كلّ مكان خمس مرّات يوميًا في أنحاء المدينة كلّها عبر مكبّرات الصوت، وعادة يوقظ السائحين المنهكين من الرقص في الملاهي وقت الفجر، وهذه النداءات المتكرّرة هي الإشارة الوحيدة غالبًا أنّ تركيا بلد يجهر بشعائره الدينيّة، أمّا أنت يا سيّدة ماري، فقد استغرقت وقتًا لتفهم الإسلام كما يعيشه الأتراك ويشعرون به في الواقع.

تركيا بلد تقيّ يتجلّى إيمانه اليوميّ في تصرفات لافته للانتباه، غير أنّ أغلب السائحين لا يحضرون إلى تركيا لاكتشاف أو فهم طبيعة الشعائر الدينيّة، أو العادات والتقاليد المتعلّقة بهذا الدين الحيّ، بل دائمًا يأتون برؤية مشوّهة؛ والأمر يتطلّب أكثر من مجرد الإعجاب بذلك البلاط الأزرق للوقوف على حقيقة هذا الدين؛ فيتطلّب فهم ما يحدث في تلك المساجد، والسبب في ركوع المسلمين وسجودهم أثناء صلاتهم على تلك السجاجيد الملوّنة، وكيف يطبقون دروس المسجد على الحياة خارجه؛ أنا أيضًا معجبة بقباب مسجد سنان وبلاط مسجد إزنك، ويعجبني خاصّة منظر التلال السبعة في إسطنبول تيجانًا على المساجد السلطانيّة، لكنّ زيارة تركيا دون محاولة فهم ما يمثله ذلك كلّه أشبه بتجاهل قيمة النوافذ ذات الزجاج الملّون في كاتدرائية "شارتر"، أو إغفال مظاهر الصوم الكبير في روما؛ فمن الضروريّ فهم سبب استخدامهم جميعًا لحبات الشُّبَح، وسبب وضع النعش في ساحة المسجد سافرًا، وسبب

ثراء اللغة التركيّة بكثير من التّحايا الإسلاميّة؛ لا بدّ أن نستوعب كيف يعيش المسلمون الجوّ الروحيّ في دور العبادة وفي منازلهم الخاصّة، وأن نفهم الرسالة التي أراد سنّان أن يرسلها ببناء قباب عريضة، وبلاط فخم، ومِساحات مفتوحة للعبادة خالية من المقصورات والمقاعد.

جعلتني رحلاتي إلى تركيا أشكّ في معتقداتي المسيحيّة كما حدث معك يا سيّدة ماري، وأوصلتني إلى البحث عن أرضيّة روحيّة مشتركة بين المسيحيّة والإسلام، وهي موجودة بلا شكّ؛ كلّنا نبحث عن المغزى وراء وجودنا، وقد نسير في مختلف الطرق لاكتشاف هذه الحقيقة، أحدها طريق الدين؛ فكلّ شخص على وجه الأرض -الملحد، والتقيّ والجاهل- لديه نوع من الدوافع الروحيّة؛ ويبحثون عن إجابات للأسئلة نفسها المتعلّقة بسبب وجود البشر، وعن أهمّ الأشياء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وعن أهميّة الدور الذي يلعبه كلّ من الحبّ، والشعائر، والأخلاق في حياتنا؛ يتعلّم أغلبنا البحث عن هذه المعاني في التقاليد، والشخصيات البارزة، والنصوص المقدّسة، والقديسين، ورجال الدين، وأنبياء السماء؛ ومن ثمّ كلّما تعلّم الإنسان عادات تخالف عاداته وثقافة نشأ عليها، كان أقدر على الوصول إلى المغزى والحقيقة، يمكن في الحقيقة العثور على هذه المعاني في الدين، لكنّها أيضًا في الفنّ، والفلسفة، والطبيعة، والعمل، وحديث النفس الخاصّ الوديّ، وفي العلم، وفي خدمة الآخرين؛ ليس هناك طريق واحد، ولا صوت واحد، ولا نصّ واحد؛ فالعالم أكبر من ذلك.

علّمتني تجاربي في تركيا كيف أنّ هذا العالم شاسع جدًّا، وشجّعني على مواجهة أفكار المدهشة، المؤثرة فيّ، المثيرة لغضبي، لكنّها في نهاية المطاف تعيد تجديد رؤيتي للأمور، وفي تركيا اليوم، كما هو الحال في بلادي، نحاول إدراك دور الدين والأخلاق في كلّ شيء، ليس فقط في أماكن العبادة، أو في التعامل مع القضايا المهمّة

في الدنيا والآخرة، بل في التعامل أيضاً مع القضايا اليومية الخاصة بالزواج، والأسرة، والمجتمع، والأخلاق، والصعوبات العلمية، وضبط الغرائز، والمبادئ السياسيّة، والقواعد الحاكمة؛ وبدلاً من طرح إجابات جامدة للمشكلات التي تثيرها هذه القضايا، يمكننا تأملها من منظور حكمة أديان كثيرة؛ لتزداد فرص مشاركتنا لها، ومواجهتها، وإيجاد حلول عمليّة تحترم الأفكار كلّها.

من أصعب القضايا الروحيّة اليومية قضايا الشرّ، وألم الموت والأحداث المأساويّة، وضعف الحرّيّة، والمعاناة، وأهميّة الأديان النظاميّة؛ لا أستحي أن أقول: إنني أشكّ، وأناضل، وأغضب؛ لأنّ هذا كلّه يعينني على جعل هذه القضايا من أولويّات وجودي، ويساعدني على استكشافها قدر استطاعتي، وتساعد أوقات الأزمات في بناء معنويّاتي، وتساعدني أن أقرّر إذا ما كنت سأأخذ إلهاً أم لا، لكنّها أيضاً تمنحني الشجاعة؛ لأحاول إصلاح ما أراه خطأ حولي، ورغم هذه الصراعات ولحظات الشكّ، لا أخجل أيضاً أن أقول: إنّ هناك معجزات لا أجد لها تفسيراً منطقيّاً، ولحظات سعادة وحبّ بالغة لا يمكن تفسيرها حتى إنني لا أصدق أنّها من قبيل الصدفة، وثمة لحظات غامضة أشعر فيها وكأنّ العناية الإلهية تصحبني، ولا أستطيع تفسيرها بمساعدة الظواهر العلميّة الحسيّة، كلقاء روح شقيقة، أو الوقوع في الحبّ، أو الانغماس في لحظة جمال طبيعيّ، أو الشفاء المعجز من مرض، أو النجاة من حادث أو مأساة، وهذه الأمور كلّها تشجّعني على استكشاف مشكلتين أصعب؛ هما الخوف والشرّ؛ فيدفعني هذا إلى الإيمان بأنّ ثمة كياناً يسمى: الربّ أو الإيمان الروحيّ.

بالرغم من إيماني، فكثيراً ما يصعب عليّ أن أقبّل أو أحتمل فظاعة عالمنا المعاصر ووحشيّته، غير أنّ معاشتي للإسلام منحني الشجاعة؛ إذ جعلتني أراجع ما أراه مهمّاً في تعاليم ديني، وفي الثراء الحقيقيّ لمنهجي المسيحيّ؛ فأراجع أنماط الشعائر الدنيّة بعينٍ أخرى غير التي

كُنْتُ أراها بها، وأسعى إلى أشكال أخرى من التفكير في هذه القضايا المعقّدة، ولفهم هذه القضايا الشخصية، ولفهم صورة الإسلام الممارس في تركيا والتحديات الاجتماعية المعاصرة التي يفرضها الإسلام عليها؛ التقيت بأحد الصوفيّة المثقّفين، وهو أستاذ في علم مقارنة الأديان في قيصري، وقابلت نساء فقيرات في القرى، وضباطاً مخلصين في الجيش، وطلبة يتعلمون الرقص المولوي في قونيا، وشخصاً يسارياً ملحدًا متعصبًا في إسطنبول، وعجوزاً يونانية في بير، وموسيقّين علويّين في ألبستان، وأشخاصاً من مختلف طرائق الحياة؛ لم يكن سهلاً عليّ ألبّته فهم صور الإيمان الكثيرة في تركيا؛ لأنها تتسم بتعدد الألوان والأشكال والموضوعات، وبقدر سهولة الإعجاب بالخزف الياباني في بلاط إزنك رأيته في جامع السليميّة بأدرنة يا سيّدة ماري، يصعب فهم المعاني الحقيقيّة لصور الإيمان كلّها في تركيا، لكن بقدر ما تبدو الحياة الإسلاميّة في تركيا الحديثة معقّدة، فثمّة أمر واحد مؤكّد لي؛ فلطالما شعرت بالراحة في تركيا؛ لأنّه بلد يتجلّى في أركان شوارعه كلّها تاريخ المسيحيّة.

شهدت الأناضول، أرض تركيا الحديثة، طبقات كثيرة من الحضارات طوال عشرة آلاف سنة مضّت، ومَرّت عليها إمبراطوريات عدّة تركت آثارها هنا: الأاراتيون، والحيثيون، واللوقيون، والليديون، والأرمن، واليونانيون، والرومان، والبيزنطيون، والسلاجقة، والعثمانيون، وجمهورية تركيا الحديثة، ورغم الاختلاف بين هذه الحضارات في سياساتها ولغاتها وعاداتها ودياناتها، تشابهت قيمها العامّة، المتسرّبة بقاياها لمتمزج بالثقافة المعاصرة، وهي قيم إنسانيّة عامّة تشمل العواطف والمشاعر المتأصّلة في التجربة الإنسانيّة وتوحّد البشر كلّهم على الأرض، رغم اختلافهم مكاناً وزماناً، ولعلّ قيمة الإحسان من بين هذه القيم الإنسانيّة كلّها هي الأكثر قرباً لنفوس الأتراك، بدءاً من يونس أمره، مروراً بمولانا جلال الدين الرومي، إلى يومنا هذا، فالعبارة نفسها تتردّد: هذا مكان متسامح، يحقّ

للأشخاص فيه اختيار تعاليمهم الروحية وسلوك الطريق الذي يشاؤون.

وأنا كمسيحية، وجدت ثراءً هائلاً في هذا البلد الجامع بين آثار التاريخ والدين في سلاسة طبيعية، ليشكل ما يشبه الأرض المقدسة الخاصة بكل شخص، و(تركيّتي) أرض إيمان؛ فقد كانت إسطنبول روما الجديدة؛ إذ وضع قسطنطين الأول حدًا لاضطهاد المسيحيين، أمّا عقيدة نيقية التي ردّدتها مرارًا وتكرارًا أثناء طفولتي في الكنيسة، فقد كتبت هنا في إزنك، المدينة صانعة هذا البلاط كله في مساجد سنان، والخزف الياباني الذي أعجبك في جامع السليمية يا سيّدة ماري، ويُعتقد أنّ سفينة نوح استوت على قمة جبل أرارات شرق تركيا، حينما غيض ماء الطوفان العظيم، حيث أسّس الأاراتيون مملكتهم قديمًا، ويخبرنا العهد القديم أنّ النبي إبراهيم وُلد في مدينة أور قرب نهر الفرات، عُرفت لاحقًا باسم إديسا، وأصبحت مقرّ أول دولة صليبية عظمى خلال أولى الحملات الصليبية للملك بالدوين الثاني عام ١٠٩٦م، واليوم يطلق الأتراك على هذه المدينة اسم ”شانلي أورفا“ أي أورفا المجيدة، وهي مجيدة حقًا؛ إذ يصعب العثور على مكان مقدّس يضمّ آثارًا للآديان الثلاثة سوى القدس؛ وفي مدينة حرّان المجاورة وُلد إسحاق وإسماعيل ولدا النبي إبراهيم، والتقّى يعقوب زوجته راحيل وهي تحضر الماء من أحد الآبار في حرّان، ومذ ذاك رُسِمَت خريطة العالم الأخيرة؛ فانحدر من نسل يعقوب بن إسحاق أنبياء الله: موسى وداوود والمسيح، وانحدر من نسل إسماعيل النبيّ محمد، نبيّ الإسلام؛ فالتجول في شوارع هذه المدينة رحلة حجّ حقيقة إلى جوهر آديان العالم التوحيدية الثلاثة وكلّ ما تمثله للإنسانية، وغبارها الدافئ مفعم بذكرى أنبياء تلك الشرائع كلّها؛ فيدفعك هذا للمشى بخشوع عبر شوارعها الخلفية الضيقة وأسواقها على أحجار صقلتها قرون من وقع الخطوات المقدسة!

ما يعنيني -وأنا المسيحية البروتستانتية- هو آثار خطوات بولس في تركيا، وُلد بولس في تركيا، في مدينة طرسوس، قرب مدينة مرسين في سهل شوكر وفا؛ ولأعثر عليه خرجت في حجّ خاصّ إلى أنطاكيا العتيقة، كي أزور هذه المدينة مقرّ أوّل أنشطته، في هذا المكان نشأت حركة أتباع المسيح، وسَمّوا أنفسهم: المسيحيّين، كان برنابا -أحد أتباع المسيح- قد دعا بولس إلى هذا المكان للعمل إلى جانب بطرس، ومرقس، ويوحنا، لدمج تعاليمه في تعاليم المسيح؛ أردت أن أكتشف بنفسي أنطاكيا الشهيرة، فالجامعة المتميّزة قرب منزل الطفولة بأوهايو سُمّيت باسمها، وكان صدى اسمها يرنّ على المنبر في تلاوات رسائل بولس، كنت أسمعها في الكنائس خلال نشأتي، وهي مدينة تاريخية، أشيد بها في حصص التاريخ الفرنسي، حينما استولى عليها بوهيموند الصليبيّ؛ ليجعلها مملكة له، إنّها مكان أسطوريّ خطّت منه المسيحية أولى خطاها.

بينما كنت أجوب شوارع هذه المدينة النائية، تعذّر عليّ تصوّر أنها كانت في يوم ما من أكبر مدن الإمبراطورية الرومانية، ندّاً للإسكندرية، وأنها كانت عامرة بالصروح العامّة الرائعة، وحلائب الرياضة، وقنا المياه، والدُّور الخاصّة المزينة بالفسيفساء الفخمة، حاولت أن أتخيّل شكل المدينة في ذلك الزمن، حينما كانت مفترقاً لطرق التجارة، وموضعاً لا يحوي الفخامة فقط، بل الزلازل والفساد أيضاً، كانت مدينة قويّة حتى إنها أغرت بولس أن يبعث منها أولى إرساليّاته على مدى سبع سنوات بداية من عام ٤٧م، وبينما كنت أمشي على شاطئ تشيفليك، -وهي القرية المجاورة لميناء أنطاكيا، وساحلها الآن مهمل، وملوّث، وقذر، على عكس تلك الأيام المجيدة- حاولت أن أتخيّل قوّة الإيمان الملهمة لبولس ليدفع زورقه الصغير؛ فيبحر عبر البحر المتوسط إلى أنطاليا لإلقاء أولى عظاته، وبينما كنت أحدّق غرباً عبر المياه، حاولت أن أتصوّر معدن هذا الرجل المشغوف بنقل الأخبار عن حبّ الربّ،

حيثُ أدركت أنني أنظر إلى الموضع الذي غيّر للأبد مصير العالم المعروف؛ إذ نشأت الكنيسة المسيحية هنا تماماً فوق الرمال التي أقف عليها، وسمعت صوت بولس يتردد في الأمواج المتلاطمة: "لَيْسَ يَهُودِيًّا وَلَا يُونَانِيًّا. لَيْسَ عَبْدًا وَلَا حُرًّا. لَيْسَ ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى، لَأَنْكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ"، ثم تبعت خطاه إلى أنطاليا، حيث ترجل عن الزورق؛ لينشر كلمة الحب، مسافراً من هناك سيراً على الأقدام، راكباً عربة في طرق الأناضول المتربة الحارة؛ وزرت مدينة قاسطموني، ويعدّها كثيرون مقراً لجماعة أوحث لبولس بكتابة إحدى أهم رسائله، رسالته إلى أهل غلاطية، كان غضبه من أعضاء الكنيسة هناك من دوافع كتابته هذه الرسالة، أنشأها، ثم حادت عن تعاليم المسيح الأصلية؛ حاولت أن أتخيله يضرب بقبضته الطاولة بغضب يجعله يكتب: "أَيُّهَا الْغَلَاطِيُّونَ الْأَغْبِيَاءُ!"، عبارة احتجاج اعتدت سماعها في عظات الأحد أثناء نشأتي، وأصبحت رمزاً للتداعيات العدول عن الطريق القويم للحب، أتذكر أيضاً أنني قرأت في سفر أعمال الرسل بالعهد الجديد جزءاً ألقى فيه بولس موعظته في معبد يهودي في قونيا؛ الآن حينما أتجول في الشوارع الخلفية الملتوية لهذه العاصمة السلجوقية المقدسة، أحاول أن أتخيل مكان هذا المعبد، ويتناهى إلى سمعي صدى صوت بولس مختلطاً بأصوات علاء الدين كيقوباد والرومي.

زرت مواقع الكنائس السبع المذكورة في رؤيا نهاية العالم -منها متهدّم ومنها مرّم- وصفها يوحنا في سفر الرؤيا؛ يبدو أنّ المسيح أخبر يوحنا: "مَا تَرَاهُ اكْتُبْهُ إِلَى سَبْعِ الْكَنَائِسِ فِي أَسِيَّا: أَفْسُسَ، وَسَمِيرَنَا، وَبَرِّغَامُسَ، وَثِيَاتِيرَا، وَسَارْدِسَ، وَفِيلَادَلْفِيَا، وَلَاوْدِكِيَّةَ" (سفر الرؤيا ١: ١١)؛ كان المقصود بذلك جماعات مسيحية أكثر منها كنائس مسيحية، لكنّها كانت تمثّل مهذاً خرجت منه العقيدة المسيحية وانتشرت في بقية العالم، وتقع هذه الكنائس في مدن تركية فقدت أهميتها الآن بوصفها مواقع مسيحية، وهي إزمير (سميرنا)، وبرجاما (برغامس)، وأسكي حصار

(ثياتيرا)، وسارديس، وألأشهير (فيلاديلفيا)، وإسكيهيسار (لاودكية)، وأكثر هذه الكنائس إثارة للمشاعر هي الواقعة في مدينة أفسس، كانت في الماضي مستعمرة يونانية؛ فهنا على مقربة من أهم المكتبات المشيدة في العصور الرومانية، أتى يوحنا بمريم والدة المسيح كي تقضي خريف عمرها؛ ويتشابه التأثير العاطفي لهذه المواقع كلها؛ إذ أشعر كأنني أطوف في آيات الإنجيل!

زرت كنائس بيزنطية مهجورة متوارية خلف الضباب الأبيض الكثيف لجبال البحر الأسود الشاهقة، مثل: كنيسة بارهال وإشهان بالقرب من مدينة أرتفين، فضلاً عن السور الرائع لدير سوملا على الجرف الصخري، وتأثرت خاصة برؤية آيا صوفيا في طرابزون، يعود تاريخها للقرن الثالث عشر، ولا شك أن حرفيين سلاجقة نقشوا أبوابها الحجرية الفخمة، وتحوّلت في أضرحة كنائس أرمينية مهجورة في حقول آني، لم يعد هناك من يتلو داخلها آيات الكتاب المقدس سوى أسراب الطيور، وأشرفت على سهول تقاطرت منها الحملات الصليبية على تركيا.

تقف بالطبع إلى جانب هذه المواقع المسيحية كلها آثار عصور وأديان أخرى؛ ككنائس حيثية، ومعابد رومانية، ومعابد يهودية، ومساجد سلجوقية وعثمانية؛ فالثراء الديني في تركيا يختلف عن أي بلد في العالم، وزرت أطلال معبد يهودي من العصر الروماني في مدينة سارديس، وقرأت الكتابات العبرية على أرضياته الفسيفسائية، أما المساجد العثمانية الكبرى، تلك الآثار العظيمة التي أبدعها سنان، فتقف شاهداً على عظمة إسطنبول، وتعلن جميعها أن الله فرد صمد، أما المدينة التي تعكس شهوات الإنسان فلا أشعر فيها بعقيدتي أو بأي عقائد أخرى، بل إن ذاك الشعور الجليل لا أشعر به إلا في قلب (تركيتي)، في تركيا السهل الأوسط؛ إذ ما زلت أسمع أتباع أديان كثيرة يجأرون بالتسبيح عبر مفترقات تلك السهول الذهبية؛ وجدت وسط هذا المزيج من الآثار الحقيقة العالمية الكاملة

للأديان كلها الممثلة في أرض تركيا المقدسة، وهكذا ترين يا سيّدة ماري، لم تساعدني تركيا على تعميق إرثي المسيحي فقط، بل فتحت أيضًا الباب لي لفهم أديان الآخرين؛ أنا واثقة أن معظم الأتراك لا يدركون الأثر النفسي لبلادهم على المسيحيين.

ما رأيته في تركيا تحت ذلك الخزف الياباني، وما قرأت من القرآن، وما ناقشت من موضوعات مع عدد كبير من الأتراك، ذلك كله أكد لي ما كنت أتوقعه من البداية: أن المسيحية والإسلام قائمان على المبادئ نفسها، المكررة في نصوصهما المقدسة، والأرضية المشتركة للأديان الثلاثة الكبرى - المسيحية واليهودية والإسلام - واحدة تنصّ على حبّ الله والجار؛ الأمر سهل جدًا؛ فيتلو كلّ مسلم سورة الفاتحة، تمجيدًا لله، عشرين مرّة على الأقل في صلواته اليومية، وهي تذكّر المسلمين دائمًا بقوة الله، وأسمائه الحسنى، ورحمته في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وبقدرته على غفران ذنوبنا:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ (سورة الفاتحة: ١/١-٧).

هذا التكرار الشعائري يذكّر المسلم بضرورة التوجّه إلى الله بقلبه، وروحه، وعقله، وعواطفه، وإرادته، حينما أقرأ سورة الفاتحة أو أسمعها تُتلى في المساجد أثناء الصلاة، أسمع أصداً من الكتاب المقدس، مثل كلمات في العهد القديم الرسمي لسفر التثنية: «فَتَحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ»، وكلمات المسيح في إنجيل (متى ٢٢ وإنجيل مرقس ١٢)، وهو يتلو الوصايا العظمى: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكَرِكَ؛ هَذِهِ

هِيَ الْوَصِيَّةُ الْأُولَى الْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالْأَنْبِيَاءُ. «؛ هذا ما تعلَّمته بصفتي مَسِيحِيَّةً: أَنْ أَحَبَّ اللَّهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِي وَرُوحِي وَأَنْ أَكُونَ مُخْلِصَةً لَهُ؛ فَبِمَاذَا يَخْتَلَفُ هَذَا عَمَّا يَشْعُرُ بِهِ الْمُسْلِمُ حِينَ يَتْلُو الْفَاتِحَةَ؟

في هذا الجزء من إنجيل مَتَّى، يعلن المسيح بوضوح أَنَّ ثَانِي أعظم الوصايا هي أَنْ: «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ»، وفي الإسلام أيضاً هناك تعاليم لا تحصى تؤكد على أهميَّة حُبِّ الجار وتحضُّ على الرحمة به، وهذه القيمة في دين الإسلام، كما هي في الدين المسيحي، فالمسلم يشكِّل إبداء محبَّته لمن حوله جزءاً مهماً من الإيمان بالله، ودون إبداء ذلك الحُبِّ لمن حوله لن يكون هناك حُبٌّ حقيقيٌّ لله؛ يقول نبيُّ الإسلام (ﷺ) في أحد أحاديثه: "لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه" (١)، وفي تركيا يأخذون مسألة حُبِّ الجار بكلِّ جدية، ولا يقتصر الأمر على المسجد فقط، بل يشكِّل أساس الحياة كُلِّها، إذ يؤمن الأتراك أَنَّ حُبَّنَا لله لا يكون صادقاً دون بذل العطاء للآخرين بكرم وتضحية بما نحبُّ، وقد تأخذ هذه النزعة الخيريَّة شكل إحدى تلك اللفتات الطيبة السهلة الغزيرة، تحدَّثت عنها في رسالة سابقة؛ فتلك اللفتات الخفية غالباً، المؤكَّدة على قوَّة الكرم التركي، هي بحقَّ صلوات صغيرة، وهناك أيضاً صدقات شعائريَّة أعظم من ذلك، مثل: الأضحية في عيد الأضحى، أو إعطاء الصدقات للجيران المحتاجين أو للمؤسَّسات الخيريَّة؛ فالأعمال الخيريَّة أقوى روابط اللحمة الاجتماعيَّة في تركيا، وهي إدراك تامٍّ لكيفيَّة تطبيق الإسلام في الحياة، بل هي من أوضح تجلِّيات القاعدة الإسلاميَّة الذهبيَّة الحاضَّة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورغم اشتراك المسيحيَّة والإسلام في القاعدة الذهبيَّة نفسها، فإنَّها تبرز أكثر في الحياة

اليومية في تركيا، فلا يشكّ أحد أنّ خدمة الناس عبادة، وأنّ ضرب المثل والقُدوة هي أقصر الطرق إلى الله.

أنا معجبة بهذا الجانب الاجتماعي للإسلام وبالأهميّة التي يوليها الأتراك لعمل الخير والتصدّق لصالح المجتمع؛ فالإسلام يعدّ الفرد نحلة عسّالة في خلية النحل البشريّة، حاملاً فكراً يرمي إلى فعل الأصح للمجتمع كلّ، ورغم أنّ الإسلام والمسيحيّة دينان مختلفتان اختلافاً كبيراً ممارسة وتطبيقاً، فإنّ الأساس المشترك لتعاليمهما الرئيسة يتشابه تشابهاً لا مثيل له؛ فلماذا إذاً يشقّ علينا السير في طريق الإنسانيّة يدّاً بيد لا استكشاف هذا التشابه بدلاً من محاولة التركيز على الاختلافات والافتتال بسببها؟ هناك ربّ واحد فقط، ويجب علينا أن نحبه وأن نحبّ من حولنا، سواءً كان ميثودياً من أوهايو أو سنياً من قونيا؛ فهذا الحبّ هو جوهر ديننا، مهما اختلفت طرائق ممارستهما، في صفوف الكنائس أو على سجاجيد الصلاة، بدقائق الأجراس أو بنداءات المؤذنين.

في تركيا هناك مأخذان بالغا الخصوصية على تديّن المسلمين، أحدهما يتماشى مع عالم التقنية المعاصرة والديمقراطية وحقوق المرأة، فضلاً عن آخر يحمل آثار أسلافهم الأتراك قبل دخول الأسلام؛ فالمرء يصادف كثيراً من الممارسات المتعارضة مع الإسلام، مثل: ارتداء عين أو خرزة زرقاء لدرء الحسد، وقراءة الطالع، والتنجيم، وتصديق المشعوذين، وتفسير الأحلام، والتضحية بالديوك والدجاج في أماكن مقدّسة لضمان الحصول على زوج أو أطفال، وزيارة أشجار عملاقة لتأدية طقوس تجلب الحظّ، والعادة التي تحمل تناقضاً غريباً؛ ألا وهي عدّ إبداء الإعجاب بجمال الأطفال شراً! لطالما ثار فضولي لدى رؤيتي قطع النسيج المربوطة في الأشجار والأجام للوفاء بالندور، وإذا تأملت هذه الممارسات الشائعة الغريبة الشاذّة، فستجدينها لا تقلّ غرابة عن بعض الشعائر الأرثوذكسيّة في طقوس مسيحيّة قائمة، مثل: احتساء النبيذ وتلوين البيض في عيد الفصح.

ثمة أشياء كثيرة حازت إعجابي واحترامي في الدين الإسلامي كما عرفته في تركيا، كما حدث معك يا سيّدة ماري حينما كتبت تلك الرسالة إلى القس كونتي؛ بادئ ذي بدء، أفترض أنني مثلك، أحب سهولة الإسلام، وخلوّه من الطقوس والأيقونات السمجة والأبهة والاحتفالات الشعائريّة، وأتفق معك تحديدًا بشأن الإلهام، تبعته الصروح المعماريّة الرائعة، زُوِّدَت بالقباب الفسيحة المفردة الخالية من المقصورات، وحينما زرت الكنائس الصخريّة البيزنطيّة في وادي جوريم في كابادوكيا، وتأملت الأيقونات الغريبة الفخمة للقديسين، والثعابين، والقصص المربعة المصوّرة على جدرانها بأسلوب يشبه أسلوب الكتب الفكاهيّة، بدا لي ذلك كلّهُ تصرّفًا صبيانًا جدًّا بعد أن سمعت ذلك النداء المهيّب أمسٍ يرفعه المؤذّن في المساجد السلجوقيّة الجرائنيّة الرماديّة الصلبة في مدينة قيصري القريبة، وكم تأثرت أيضًا بالوقوف أمام شجرة دلب عمرها خمس مئة عام في مدينة الموتى ببورصة، وتأمّل ضريح السلطان مراد الثاني الصوفيّ المؤثر ذي القبة المفتوحة، ومن قبيل السهولة أيضًا أنّ النطق بالشهادة هو أول ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي حوار شخصيّ يعكس الإيمان، وليس طقسًا مقدسًا معقدًا؛ فالنطق بالشهادة أهمّ صلاة لله، وبسهولة هذا الحوار وخصوصيّة أحد أكثر جوانب هذا الدين إثارة للإعجاب.

الأمر الآخر الذي يعجبني في الإسلام هو تسامحه مع الأديان الأخرى، وأنّ كثيرًا من الأنبياء، مثل: موسى، وعيسى، وإبراهيم، وداود، وسليمان، وآدم، ويونس، وإسحق، ونوح، ويعقوب وغيرهم مذكورون في القرآن؛ قرأت في القرآن: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (سورة النساء: ١٧١/٤)، ويعجبني كذلك الحسن الأخلاقي الرفيع الذي يتحلّى به الأتراك، ويؤكّده التمييز بين الخطأ والصواب كما يعلمهم القرآن الذي يرفض أشكال العنصريّة والإرهاب كلّها ويلعنهما؛

يقول القرآن: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: ٣٢/٦)، وتعجبني أيضًا الصفات المشتركة بين المسيحية والإسلام؛ فالمسجد كالكنيسة مكان لإقامة الشعائر، ومكان للأمن والسلام والالتجاء، والفكرة المسيحية الخاصة بخدمة الآخرين، والقيام على توزيع نعم الرب، والتسليم برسالة الرب ومشيتته، وغفران ذنوب الفرد والمجتمع، كلها أمور مهمة في الإسلام أيضًا.

رغم أنني أرى التوجه إلى المسجد خمس مرّات يوميًا للصلاة من الصعوبة بمكان في حياتي اليومية الحافلة، فإنني أستمتع بلحظة التأمل أن أنغمس فيها حينما أسمع الأذان في شوارع المدن الكبيرة والقرى الصغيرة؛ في هذه اللحظة أتوقّف تمامًا لأستجمع أفكاري الخاصة بيومي، وأبتهج؛ لأنني على قيد الحياة في هذه اللحظة، وعندما أتوقّف فإنني أشارك أيضًا في تطبيق النظام السلوكي الإلهامي الذي يعلنه الأذان؛ يقل النشاط في الشارع دقيقتين، ويتوقّف الناس عن فعل أي شيء، وتصمت الأحاديث، وتكفّ أبواق السيارات عن النفير، ويتوقّف الباعة الجائلون عن الصياح، ويخفت صوت أجهزة المذياع، وتهدأ الأرصفة، وتنزل بركة خفية على الجوار وأهله، وأنا أيضًا أتوقّف وأصغي إلى جمال الأذان، وأستغرق وقتًا لأتلو صلاتي الخاصة؛ إذ يذكّرني الأذان بواجبي نحو الآخرين، كما يفعل المسلمون؛ حينما أسمعه أفكر في أخطاء ربّما ارتكبتها في ذلك اليوم في حق الآخرين؛ فيدفعني الأذان أن أسأل نفسي: «هل تفوّهت بأيّ كلمة قاسية، أو خطرت لي خواطر شريرة؟ ألم يكن بوسعي أن أكون أكثر لطفًا مع فلان؟» لديّ ثلاثة أصدقاء مصوّرين ناجحين في قونيا منحوني من وقتهم يومًا كاملاً لاصطحابي لرؤية المزارات، وفي نهاية اليوم زرنا قرية سيلا القريبة، فتوقّفوا خلال الزيارة؛ ليدخلوا مسجدًا لأداء صلاة العصر، وفي وقت لاحق، حينما كنّا نحتسي الشاي، سألتهم عمّا تعنيه الصلاة لهم، وعن سبب اهتمامهم

بأدائها وسط يومهم المزدحم، وعن كيفية نجاحهم في توفير الوقت اللازم لأدائها خلال يومهم، فشرحوا لي بمتهى الصبر أن القضية لا تكمن في إيجاد الوقت اللازم لأدائها، وأنّ تلك الدقائق المعدودة تمنحهم شعوراً بالنشاط الجسمانيّ والنفسيّ دائماً؛ فيعينهم على مواجهة تحديات يومهم الحافل، والتفت أحدهم، وهو فوزي شيمشك، وقال: «لو استطاع الناس كلّهم في العالم، لا المسلمون فقط أن يحفظوا بلحظات السلام هذه كلّ يوم، فقد تقلّ نسبة المشكلات في العالم»، كان رأيه بسيطاً واضحاً جدّاً، وفي لحظة من أجواء الصفاء تحت شمس الأصيل، شاطرته تفاؤله.

الإسلام أحد الجسور التي يجب أن أجتازها بين تركيا وبلادي، وأعتقد أنّ دوري مهمّ بوصفي مترجمة داعمة للحوار بين الأديان، فإذا كنت أستطيع -وأنا المسيحية- أن أحدث عائلتي وأصدقائي عن الإسلام؛ لأساعدهم على فهم جماله وتميّزه، فسأكون قد أسديت خدمة لهم جميعاً؛ أتمنى أن أعزّز روحانيّة أبناء بلادي، ولو بقدر يسير، مثلما تعزّزت روحانيّتي، وتعمّقت من خلال استكشافي القيم المشتركة بيننا وبين الإسلام؛ ربّما يؤدي ذلك إلى نشر السلام؛ وهو الهدف الأسمى للأديان كلّها.

علّمتني تركيا وشعبها وأسلوب حياته وشكل إسلامه كثيراً من الأمور؛ أدركت أنّ مواجهة التعدّد الدينيّ ومختلف الممارسات الدينيّة يمكنها أن تزيد المرء قوة، واكتشفت أنّ حبّ الطبيعة جزء مهمّ من أرواحنا، وأنّه يغرس البهجة في نفوسنا، ورأيت كيف تستطيع الأسرة أن تصبح مركزاً للمجتمع بأسره وللحبّ، وكيف تخلق الأسرة مساحة مقدّسة آمنة بعيداً عن صخب الحياة اليوميّة، وأدركت قوّة يستطيع الفرد أن يمنحها لمن حوله، وكيف يستطيع لمسة حبّ واحدة أن تضيء ساعات من الصفاء، واكتشفت كيف يستطيع الأشخاص أن يكونوا سفراء للخير، وكيف يمكن أن تتحوّل لفتاتهم الكريمة إلى وسيلة لجعل العالم مكاناً

أكثر هناءً، وتعلّمت من دروس الحبّ المستقاة من الروميّ والصوفيّة أنّ عوالم الإيمان الغامضة حقيقة واقعة يجدر تبجيلها؛ فتناولهم الصوفيّ للإيمان جعلني أرى أنّ بلوغ الروحانيّة يتأتّى بحبّ الناس كلّهم والأشياء كلّها، بهدف إضفاء الرقّة على الحياة، وتعلّمت منهم أنّ ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب؛ هذه الدروس كلّها المتسلّلة إلى ديني وتقاليدي وآرائي، أقنعتني أنّ الحبّ بسهولة هو سلوك موجّه نحو خير الآخرين، وأنّ الربّ يتجلّى في الحياة والحبّ لكلّ واحد منّا، وفي أشكال جمال الطبيعة كلّها، وفي خوارق حياتنا اليوميّة، وأهمّ شيء عندي أنّني أصبحت أوّمن أنّ الربّ يمثل قناعة أنّه لا بدّ أن يسود النور والجمال والخير؛ فالإيمان بالربّ هو التحليّ بالأمل.

لعلّ أعظم درس تعلّمت أنّ المستقبل لا يمكن مجابهته إلا بالأمل لا باليأس، وأنا أوّمن أنّ المسلمين قوم مسالمون، وأنّ الإسلام لا يسعى إلى تدمير من يخالفه؛ إذ كيف لدين يذكر المسيح في كتابه المقدّس بهذا التسامح كلّ أن يضمّر السوء للمسيحيّة! سيصّفني المخالفون لي في الرأي بالسذاجة، لكنني أوّمن بذلك، لأنّه يشكّل أمل حياتي؛ فيمكن أن تظلّ هذه القناعة موضوعاً لحوارات ودّيّة بين الأديان، ولتصريحات زعماء دينيّين، أو هيئات عالميّة متّحدة؛ فالعلاقة اليوم بين المجتمعات الدينيّة الإسلاميّة، والمسيحيّة، واليهوديّة، هي أهمّ عامل يسهم في إشاعة السلام في العالم؛ لأنّه بسهولة في حال انعدام السلام بين هذه المجتمعات، لن يعيش العالم في سلام؛ في هذا العالم الواسع المليء بالأسلحة الشريرة الفتّاكة، لا يمكن استغلال الدين في لعبة القوّة بين الحكومات المتغطرسة أو بين المتعصبين الحمقى.

نحن نعيش في أمريكا على أرض لا مثيل لها في العالم؛ إذ يشترك اليهود، والمسيحيّون، والبوذيّون، والسيخ، والهندوس، والمسلمون، والملحدون، في الاحتفال بعيد الشكر، ويتمتّعون بحريّة العبادة،

ويجب على أمريكا أن تظهر للعالم أن التآلف والتعايش السلمي ممكن في الداخل ثم في الخارج، ويجب على تركيا أن تظهر للعالم إلى أي مدى يمكن أن يكون الإسلام دينًا مسالمًا جديرًا بالإعجاب والاتباع لا دينًا مشوَّهًا بالنوايا السيئة؛ فمستقبل سكان الأرض كلهم مسؤوليتنا جميعًا ورهن أيدينا جميعًا، وكما قال المسيح: «طوبى لِصَانِعِي السَّلَام».

كانت كل رسالة من رسائلك يا سيّدة ماري صانعة سلام صغيرة، وأتمنى أن يستمرّ قلمك وأقلام أخرى في إلهام روح الإخاء، وفي ختام رسالتي سأتركك مع كلمات لأبلغ صنّاع السلام، جلال الدين الرومي؛ فالحكمة البالغة لهذا المتصوّف التركي تحوي جوهر الروحانيّة الذي ينبغي أن يرشد جهودنا جميعًا في هذا الاتجاه:

«حاولت أن أعثر عليه فوق الصليب، لكنّه لم يكن هناك، فذهبت إلى معبد الهندوس وإلى الباغودا القديمة، لكنني لم أعثر له على أثر، بحثت فوق الجبال وفي الأودية، لكنني لم أتمكن من العثور عليه لا في الأعالي ولا في الأعماق، ذهبت إلى الكعبة في مكّة، لكنّه لم يكن هناك أيضًا، سألت العلماء والفلاسفة، لكنّه كان أرفع وأسمى، وأعلى من فهمهم، ثمّ بحثت في قلبي، وهناك رأيته حيث كان مستقرًّا؛ ما كنت لأجده في أيّ مكان آخر».

صديقتمكم

قدريّة براننج



جامع السلیمانیّة يملأ أفق إسطنبول



مسجد الخاتونية في قيصري



عش لقالق، المسجد الأخضر، في إزنك

صفحة من نسخة مصحف يرجع
إلى العصر السلجوقي ١٢٧٨م



تجهيز لموائد حلويات عيد الفطر (عيد السكر) في إسطنبول



زاوية أخي إفرين درويش في قيصري



أرارات: جبل نوح



باب يؤدّي إلى زاوية الشيخ تورسان



شرائط نذرية مربوطة في موقع مجمع أصحاب الكهف، المبنّي محل كنيسة بيزنطية



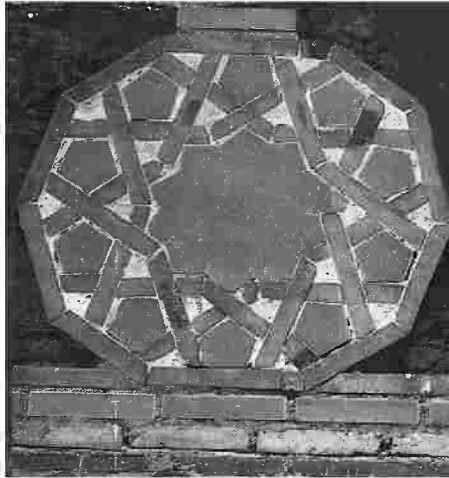
شرايط ندریة على شجرة توت عمرها خمس مئة عام، زاوية حاجي بكتاش

TAKVİM						
HİCRİ: 9 REBİÜLAHİR 1416						
RUMİ: 22 AĞUSTOS 1411						
Vakit:	İmsak	Güneş	Öğle	İkindi	Akşam	Yatsı
Vasati:	4.56	6.26	13.08	16.47	19.39	21.04

أوقات الصلاة المعلن عنها في الصحف اليومية



تذكرة الدخول لمتحف مولانا جلال الدين الرومي في قونيا



لوحة من البلاط على مئذنة الجامع الكبير في سيرت



جامع السليمية في أدرنة عام ١٩٨٥م